



كتاب العرب

أو الرد على الشعوبية

لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة من أهل القرن الخامس

تسعة ما في الجزء الماضي

ومنهم الخطيئة هجا أباه وأمه ونفسه فقال في أمه:

تحي فاقعدي مني بعيدا ... أراح الله منك العالمينا

ألم أوضح لك البغضاء مني ... ولكن لا أخالك تعقينا

أعمر بألا إذا استودعت سرا ... وكانونا على المتحدثينا

وقال لأبيه:

لحك الله ثم لحاك حقا ... أبا ولحك من عمر وخال

فبئس الشيخ أنت على المخازي ... وبئس الشيخ أنت لدى المعالي

جمعت النجوم لا حياك ربي ... وأبواب السفاهة والضلال

وقال لنفسه:

أبت شفتاي اليوم ألا تكلمنا ... بشر فما أدري لمن أنا قائمه

أرى لي وجهها شوه الله خلقه ... فقبح من وجهه وقبح حامله

وأتى عينة بن النحاس العجني مادحا فقال عينة لوكيله أذهب معه إلى السوق فلا يشترى
إلى شيء ولا يومن به إلا اشتريته له فلما انصرف عنه قال:

مشت ولم تبخل ولم تعط طائلا ... نسيان لأذم عنيك ولا حمد

ومن لؤم الغرائز أيضا في الناس أن منهم من يؤثر ريح الكرايس على ريح الينجوج
وريح الحشوش على نفحات الورد، ويحتاج من النساء لذات القبح والدفر، ويكسل عن
الحسنة ذات العطر، ومنها أن الرجل يكون في رخاء بعد يؤس وسعة بعد ضيق فيسأم ما
هو فيه ويرغب عنه إلى ما كان عليه، وقال أعرابي قدم المصر فحنت حاله:

أقول بالمصر لما ساءني شعبي ... إلا سبيل إلى أرض بها جوع

إلا سبيل إلى أرض بها غوث ... جوع يصدع منه الرأس برقوع

وهذا وأشباهه من لئيم الغرائز كثير في الأمم وهذه الطباع هي أسباب الشرف وأسباب
الخلول فلهذا الهمة تسمى به نفسه إلى معالي الأمور وتوغب به عن الشائعات فيخاطر في
طلب العظيم بعظيمته، ويستخف في ابتغاء المكارم بكريمته، ويركب الهول ويدرع الليل،
ويحط إلى الحضيض، وتأبى نفسه إلا علواً حتى يسعد بحمته، ويظفر ببغيته، ويموز الشرف
لنفسه وذريته، ومن لا همة له جثامة لبد يغتم الأكنة ويرضى بالدون ويستطيب الدعة
وإن أعدم لم يأنف من ذل السؤال والجبان يفر عن أمه وأبيه وصاحته وبنيه والشجاع
يحمي من لا يناسبه بسيفه وبقي الجار والرفيق بمحبته والبخيل يبخل على نفسه بالقليل

والجواد يجود لمن لا يعرفه بالجزيل وقال الله عز وجل (قد أفنح من زكاتها وقد خاب من دسائها) يريد قد أفنح من أغنى نفسه بالمعروف وأعلاها وقد خاب من أمقتها بنعيم الأخلاق وأخفاها وقد يكون الرجل مخالفاً لأبيه في الأخلاق وفي الشئائل أو في المهمل أو في جميع ذلك لعرق نزعه من قبل أجداده لأبيه وأمه وقال الشاعر:

وأشبهت جدك شر الجدود ... والعرق يسري إلى النائم

ومن الناس الشريف الحسيب وذلك الذي جمع إلى محاسن آبائه محاسن ومنهم الشريف ولا حسب له وذلك إذا كان لئيم النفس ومنهم من لا شرف له ولا حسب وذلك إذا كان لئيم النفس لئيم السلف.

وقال قيس بن ساعدة لأقضي بين العرب قضية ما قضى بها أحد قبلي ولا يردها أحد بعدي (أيما رجل رمى بملأمة دونها كرم فلا لؤم عليه وأيما رجل ادعى كرمًا دونه لؤم فلا كرم له) يعني أن أولى الأمور بالمرء خصاله في نفسه فإن كان شريفاً في نفسه وآباؤه لئام لم يضره ذلك وكان الشرف أولى به وإن كان لئيمًا في نفسه وآباؤه كرام لم ينفعه ذلك. ومثله قول عائشة: كل شرف دونه لؤم فاللؤم أولى به وكل لؤم دونه شرف فالشرف أولى به: وقال الشاعر في مثله

ومن بك ذا لؤم ومجد يعده ... فأولى به من ذاك ما كان أقربا

فلا لؤم عوداً بعد مجد يده ... ولا مجد معدوداً إذا اللؤم عقباً

والحب مأخوذ من قولك حبت الشيء أحسبه حسباً إذا عدوته وكان الرجل الشريف يحسب مآثر آبائه وبعدهم رجلاً رجلاً فيقال لفلان حسب أي آباء يعدون وفضائل تحسب فالمصدر مسكن والاسم مفتوح كما تقول هدمت الحائط هدماً فتسكن

المصدر وتقول لما سقط إلى الأرض هد ففتح الدال من الاسم وكذلك الأمم فيها أمة كرم بنائها كالعرب فإنها لم تنزل في الجاهلية تتواصى بالحلم والحياء والتذمم وتتعاير بالخل والغدر والسفه وتنزه من الدناء والمذمة وتتدرب بالنجدة والصبر والبسالة وتوجب للبحار من حفظ الجوار ورعاية الحق فوق ما توجه للنحيم والشفق فربما بذل أحدهم نفسه دون جاره ووقى ماله بماله وقتل حميه. منهم كعب بن مامة وكان إذا جاوره جاز فمات بعض لحته وداه وإذا مات له بعير أو شاة أعطاه مكان ذلك مثله. ومنهم عجير بن نسني الحنفي أحد أوفياء العرب وكان له جاز فخالفه أخوه قرين إلى امرأة فاشتد الرجل في حفظ امرأته فقتله وكان عجير غائباً فلما قدم وخبر بذلك دفع قريناً إلى ولي المقتول فقتله واعتذر إلى أمه وعظم جرمه فقالت:

تعد معاذراً لا عذر فيها ... ومن يقتل أخاه فقد ألاما

ومن أعجب أمر في الجوار قصة أبي حنبل حارثة بن مرّ وكان الجراد سقط بقرب بيته فقصده الحي لصيده فلما رآهم قال أين تريدون قالوا نريد جارك هذا فقال أي جيران قالوا الجراد فقال أما إذ جعلتوه لي جاراً فوالله لا تصلون إليه ثم منع عنه حتى انصرفوا ففخر بعضهم فقال:

لنا فضبة ولنا معقل ... صعدنا إليه بصم الصعاد

منكاه في أوليات الزمان ... من بعد نوح ومن بعد عاد

ومنا ابن مرّ أبو حنبل ... أجار من الناس رجل الجراد

وزيد لنا ولنا حاتم ... غياث الورى في السنين الشداد

وقال قيس بن عاصم يذكر قومه:

لا يفتنون لعب جارهم ... وهم لحفظ جواره فطن

وقال مسكين الدارمي:

ناري ونار البحار واحدة ... وإليه قبني تقول القدر

ما ضر جاراً لي يجاورني ... أن لا يكون لبيد ستر

وقال الخطيئة بعد محاسن قومه:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

وإن كانت النعماء فيهم جروا بها ... وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها ... وإن غضبوا جاء الحفيظة والجد

أقنوا عنهم لا أباً لأبيكم ... من النوم أوسدوا المكان الذي سدوا

ولهم الضيافة عامة شاملة في جميع البادين منهم والإيثار عني النفس والجود بالموجود
وأفضل العطا جهد المقل.

وقال عثمان بن أبي العاص: لدرهم يخرجده أحدكم من جهد فيضه في حق خير من عشرة
آلاف درهم يخرجها أحداً غيضاً من فيض: ولولا ما تواصلوا به من الضيافة وتحاضوا
عنه من الإيثار لمات الخير وأبدع به دون غايته.

وقال أروطة بن سهية:

وما دون ضيفي من تلاد تحوزه ... إلى النفس إلا أن تصان الحلائل

وقال ابن أبي الزناد قال عبد الملك بن مروان ما يسرني أن أحد من العرب ولدي إلا
عروة بن الورد لقوله:

وإني أمروء عافي إنائي شركة ... وأنت أمروء عافي إنائك واحد

أقرأ مني أن سميت وإن ترى ... بجسي مس الحق والحق جاهد
 أقسم جسي في جموم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد
 يريد أنه يقسم قوته على أضيافه فكأنه قسم جسده لأن النعم الذي ينبت ذلك الطعام
 يصير لغيره ويحسو قراح الماء في الشتاء ووقت الجذب والضيق لأنه يؤثر بالذين فتوقف
 غنى هذا الشعر وغنى ما فيه من شريف المعاني.
 وقال آخر:

إذا ما عملت الزاد فالتبس له ... أكىلاً فلاني غير آكله وحدي
 بعيداً قصياً أو قريباً فإني ... أخاف مذمات الأحاديث من بعدي
 فكيف يسغ المرء زاداً وجاره ... خفيف المعى بادي الخصاصة والجهد
 ولعل الطاعن أن يقول في هذا الموضوع فأين هو من ذكر مزرد وحيد الأرقط وهجائهما
 للأضياف وأين هو من مطاعنهما الخبيثة من الحيات والضباب واليرابيع والعنهن وشربهم
 الفظ والمخدوح وأكل ميلسهم لحوم الإبل حيداً غير نضج ونيا والعروق والعلابي وسقط
 المائدة لا يعافون شيئاً ولا يتقذرون أكل السباع ونهش الكلاب ويفخر عنهم بأطعمة
 العجم وحنوائها وآدابها غنى الطعام وكنها باليارحين والسكين فلما هذان الشاعران
 النذان يهجون الأضياف ويصفاهم بكثرة الأكل وجودة النعم فإن أحدهما كان فقيراً
 ضعيف الحال فإذا نزل به الضيف لم يجد بداً من إثارة بقليل ما عنده أو مشاركته فيه
 فبييت طاوياً ويصبح جائعاً ويميش صدره بما حل به والشاعر بمؤلة المصدور لا بد من أن
 ينفث فيستريح إلى ذكر لقم الضيف ووصف آكله وحديثه قال هو أو غيره بذكر
 الضيف:

تجهز كفاه ويحدر حلقه ... إلى الزور ما ضمت إليه الأنامل
يقول وقد ألقى المراسي لنقرى ... ابن لي ما الحجاج بالناس فاعل
فقلت له ما إن لهذا طرقتنا ... فكل ودع الأخبار ما أنت آكل
أتانا ولم يعدله سحبان وائل ... بياناً وعلماً بالذي هو قاتل
وقال أيضاً يذكر الأضياف:

باتوا وجلتنا الشهرين بينهم ... كأن أظفارهم فيها السكاكين
فأصبحوا والنوى عالي معرسهم ... وليس كل النوى ينقى المساكين
أراد من الأضياف من يأكل السر بالنوى وهذا يدل على شدة فقره. وأما مزرد فكان
شرهاً منهوماً والشره رفيق البخل وهو القاتل:

لبكت بصاعتي صاع عجوة ... إلى صاع سمن فوقه يترع
فقلت لبطني أبشر اليوم إنه ... حوى أمنا مما تحوز وترفع
فإن ينك مصوراً فهذا دواؤه ... وإن ينك غرثاً فذا يوم يشبع
وقال الخطينة:

أعددت للضيفان كياً ضارياً ... عندي وفضل هراوة من أرزان
ومعاذراً كذباً ووجهاً باسراً ... وتشكياً عض الزمان الألزان
وهذا شر القوم وليس من الناس صنف إلا وفيه الخير والشر على ذلك أسست الدنيا
وعليه درج الناس ولولا أحدهما ما عرف الآخر وإنما يقضي بأغلب الأمور ويحكمون
بأشهر الأخلاق. وليس في ثلاثة من الشعراء أو أربعة ما هدر مكارم الأخلاق آلاف من

الناس وبدد صنائعهم. فهذا كعب بن مامة آثر بنصيبه من الماء رفيقه السري حتى مات عطشاً.

وهذا حاتم الطائي قسم ماله بضع عشرة مرة ومرة في سفره على عترة وفيهم أسير فاستغاث به ولم يحضره شيء فاشتراه من العزيين فخلاه وأقام مكانه في القد حتى أدى فداءه. وكل فخر في طي فهو راجع إلى نزار ولم الجبلان وهما بنجد وأخذهم بآدابهم وتحققهم بأخلاقهم. وهذا عدي شاطر ابن دارة الشاعر ماله. وهذا معن في الإسلام كان يقول فيه حدث عن البحر ولا حرج وعن معن ولا حرج. وأتاه رجل يستحمه فقال يا غلام أعطه فرساً وبرذوناً وبغلاً وبعيراً وبعيراً وجارية ولو عرفت مركوباً غير هذا لأعطيتكه. وهذا فيك بن مالك بن معوية باع ابنه وانطلق بأثمنها إلى منى فأنهبها والناس يقولون مجنون فقال:

لست بمجنون ولكني سمح ... أفياكم مالي إذا عز القمح

وهذا شيء بكثير جداً ويتسع القول فيه ويخرج الكتاب من فنه باستقصائه وكان غرضنا في هذا الكتاب أن ننبه بالقليل من كل شيء في عيون الأخبار. وأما تعييرهم إياهم بحديث المطعم كالعنيز والحيات وخبيث المشرب كالفظ والجدوح فإن هذا وأشباهه طعام الجاوع والضرورات وطعام نازلة الفقر والفنوات وقال الشاعر:

إذا السنة الشهباء حل حرمها

يريد أنهم يأكلون فيها الميتة وقال الراعي:

إلى ضوء نار يشوي القد أهنها ... وقد يكرم الأضياف والقدر يشوي

وإنما كأن يكون هذا عيباً لو كانت العرب مختارة له في حالة اليسر كما تختار بعض العجم
الذباب وهم عنه غني والسراطين والدجاج لهم معرصة فأما حال الضرورة فالناس كلهم
يعسرون فمن لم يجد اللحم أكل اليربوع والضب ومن لم يجد الماء شرب الخدوح والفظ.
قال الأصمعي أغبر عني إبل حريضة فحبب فركب بحيرة فقل أتركب الحرام فقال يركب
الحرام من لا حلال له: وقال الشاعر:

يا ليت لي نعين من جند الضبع ... كل الحذاء يحتذي الخافي الوقع
ومما يدللك عني أن أهل الثروة منهم عني خلاف ما عنده الصعاليك والغتر قول الشاعر:
فما لحم الغراب لنا بزاو ... ولا سرطان أثمار اليربوع
فالتقى من أكل لحوم الغربان وغيرهما قوما.
وقال آخر لامرأة:

أكلت دماً إن لم أرعك نصرة ... بعيدة مهوى القرط طيبة النشر
فمن كان شرب المجدوح عنده محموداً لم يجعل يمينه شرب الدم كما يقول القاتل شركت
بالله إن لم أفعل كذا وكذا.
وقال آخر:

نعاف وإن كانت حماساً بطونا ... لباب النقي والعجاب أجردا
يريد أنه يرغب وإن كان جائعاً عن أكل الخبز بالتسر إلى أكله بالشحم ونزل رجل من
العرب فقدم إليه جراداً فعافها وأنشأ يقول:
لحي الله بيتاً ضني بعد هجعة ... إليه دجوجي من الليل المظنم
فأبصرت شعباً قاعداً بفنائه ... هو العير إلا أنه يتكنم

أتاني بيرقان الدبا في إنائه ... ولم يك في برق الدبا لي مطعم

فكنت له غيب إناءك واعتزل ... فهل ذاق هذا إلا أبا لك مسلم

وأما أكنهم العلاجي والعروق والنحم الخيء وتركهم طيبة الأطعمة والأطبخة وحسن الأدب عند الأكل فهذا لعري هو الأغلب على من الأغلب عليه الفقر فأما ذورا النعمة واليسار والأقدار فقد كانوا يعرفون أطايب الطعام ويأكلونها ويأخذون بأحسن الأدب عليها.

فالمضرة لهم واسمها يدلنك على ذلك تطبخ بالنبن الماضر وهو الحامض فاشتق اسمها منه. والمريسة لهم سميت بذلك لأنها تهرس أي تدق ويقال للسدق المهراس والوشيقة لهم والعمامة تسميها العشيقة سميت بذلك لأنها توشق أي تقطع صغاراً والعصيدة لهم وسميت بذلك لأنها تعصد إذا عنت أي تنوى وكل شيء ألويته فقد عصدته ومنه قيل للنائل عتقه عاصد وقال مرود:

لبكت بصاعي حنطة صاع عجوة ... إلى صاع سمن فوقه يتربع

وهذا هو العصيدة وقال أمية ابن أبي الصلت في عبد الله بن جدعان:

له داع بمكة مشعل ... وآخر فوق دارته ينادي

إلى روح من الشيزى ملاء ... لباب البر ينك بالشهاد

وهذا هو الفالوذ وهم أوصف الناس للطعام والطفهم في ذكره. حدثني أبو حاتم قال حدثني الأصمعي قال حدثنا أبو طفينة قال حدثنا شيخ من أهل البادية قال ضفنا فلاناً بخنطة كأنها مناكير النمران وتمر كأنها أعناق الوردلان يوحد فيها الصرس.

وحذا الأصمعي أيضاً عن أعرابي أنه قال قمرنا خر من فطس يغيب فيه الضرس كأن نواهن السن الطير تضع التمرة في فيك فتجد حلاوتها في كعبك.

وحدثني عبد الرحمن عن عمه قال قال شيخ من أهل المدينة فأتاني بمرقة كأن فيها مشقاً فقم أر الأكبد طافية فغمست يدي فوجدت مضغة فمددتها فامتدت حتى كأني أزم في ناي ولهم أطبخة كثيرة من أطبختهم الغسانية وهي لا تعرفها عامتنا كالحيسة والريكة والخزيرة والنفيسة تركت ذكرها واقتصرت على ما تعرف وكانوا يقولون:

أطيب النعم عوده: يريدون أطيبه ما ولي العظم كأنه عاذ به. وكانوا يقولون إذا كنتم فسنوا وادنوا يريدون بادنوا كنوا مما بين أيديكم وكانوا يكرهون أكل الدماغ ويرون استخراجهم رغياً وحرصاً وقال قائلهم:

ولا يتقى المخ الذي في الجماجم

ومن قبائل العرب من يعاف إليه الشاة ويقولون هي طبق الاست وقال قائلهم:

وللنوت خير من زيارة باخل ... يلاحظ أطراف الأكل على عند

وكانوا يمدحون بقلة الأكل وقال أعشى باهلة:

تكفيه حزة فلذان ألم بها ... من الشواء ويروى شربة الغمر

ويعيون بالشره والنهم والكسل ويقول للبخيل الأكل أبرماً قروناً يريد أن لا يخرج مع أصحابه شيئاً ويأكل قمرتين واسل اليرم الذي لا يسير مع القوم وقال بعض الرجاز:

تسألنا عن بعننا أي فنى ... خب جبان وإذا جاع بكى

لا حطب القوم ولا القوم سقى ... ولا ركاب القوم إن صنعت بغى

ويأكل السر ولا ينقي النوى ... ولا يوارى فرجه إذا اصطلى

كأنه غرارة ملأى حشا

وقال الأخف جنبوا مجنسا ذكر النساء والطعام فإني أبغض أن يكون الرجل وصافا
لبطنه وفرجه.

وأن من المرأة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيها وقال قائلهم: أقلل طعاماً، تحمد مناما،
وقال أيضاً: غبت بطني فطنتي.

وقال عمرو بن العاص لمعوية يوم حكم الحكمان: أكثروا الطعام فوالله ما بطن قوم إلا
فقدوا بعض عقولهم، وما مضت عزمة رجل بات بطينا.

ومثل هذا كثير لمن تتبعه فكيف تكون المعرفة بالطعام والأدب عنده إلا كنا وصفنا فأما
تركهم أنضاج اللحم فلا أعننه إلا في موضع واحد وهو إذا سافروا وغزوا فإفهم
يتمدحون بترك الأنضاج لعجنة الزماع وقال الشماخ:

وأشعث قد قدّ السفار قيصه ... يجز الشواء بالعصا غير منضج

وقال الكيت:

ومرضوفة لم تون في الطبخ طاهياً ... عجنت إلى محورها حين غرغرا

ولم يزل الشرب إذا اجتمعوا والأحداث من أولاد المنوك وغيرهم يبادرون بالنشيل قبل
النضج.

قال أعرابي نحر بعيده وشرب:

عدلائي إنما الدنيا غُذِل ... ودعاني من ملام وعدل

وانشلا ما أغبر من قدريكنما ... وأسقياني أبعد الله الجمل

وأما أكلهم سقط المائدة فإنه أكرام للطعام وإعظام للنعمة وجنس من الشكر لواهبها
ونبذه في المزابل استخفاف به وتصغير له وبخس بمؤتيه حق عطيته، ومن وهب لك شيئاً
صته وعظمت سمحت لك نفسه بالزيادة منه، وإن احتقرته وازدريته كان حرياً أن يقطعه
والطعام أعظم نعم الله عني خلقه بعد معرفته لأنه مثبت الروح ومحسّن الرمق فمن صانه
فقد عظم نعمة الله واستوجب زيادة الله ومن امتنعه في غير ما خلق له فقد صغرهما
واستوجب سخط الله.

حدثنا يزيد بن عمرو قال حدثنا أيوب بن سليمان عن محمد بن زيادة عن ميمون بن
مهران عن ابن عباس قال ولا أعظم إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم بأكل سقط المائدة
وزغب فيه.

والعجب عندي من قوم محنتهم الإسلام ونبههم محمد صلى الله عليه وسلم ثم تابعت
الأخبار عنه بشيء أمر به أو نهى عنه فيعارضون ذلك بالعب وبالطعن من غير أن يعرفوا
العنة ولا أن يكون لهم في الإنكار له نفع أو عليهم في الإقرار به ضرر.

وأما أكلهم باليارحين والسكران فنفد للطعام ناقص لذته والناس يعينون إلا من عاند
منهم وقال بخلاف ما تعرفه نفسه أن أطيب المأكّل ما باشرته كف آكله ولذلك خلقت
الكف لنبطش والتناول والتقدير من اليد المطهرة وعجب وأولى بالتقدير من اليد الرقيق
والبنعم والنخاع الذي لا يسوغ الطعام إلا به وكف الطباخ والحجاز تباشره والإنسان
ربما كان منه أقل تقدراً وأشدّ إنساً.

وأما الشجاعة فإن العرب في الجاهلية أعز الأمم أنفساً وأعزها حريماً وأحماها أنوفاً
وأخسها جانباً وكانت تغير في جنات فارس وتطرقها حتى تحتاج المنوك إلى مداراتها

وأخذ الرهن منها والعجم تفخر بأساورة فارس ومرازبتها وقد كان لعمرى لهم البأس
والنجدة غير أن بين العرب وبينها في ذلك فرقاً منه أن العجم كانت أكثر أموالاً وأجود
سلاحاً وأحصن بيتاً وأشد اجتماعاً وكانت تحارب برياسة الملك وسياسة سلطان وهذه
أمر تقوي المنة وتشد الأركان وتؤيد القنوب وتثبت الأقدام والعرب يومئذ منقطعة ليس
لها نظام ومتفرقة ليس لها التمام وأكثرها يحارب راجلاً بالسيف الكنيل والرمح الدليل
والفارس منها يحارب على الفرس العربي الذي لا سراج لع وعلى السرج الرث الذي لا
ركاب له والأغلب على قتال العجم الرمي والأغلب على قتال العرب السيف والرمح
وهما أدخل في الجند وأبعد من الفرار وأدل على الصبر.

وشجعائهم في الجاهلية مثل عتيبة بن الحارث بن شهاب صياد الفوارس وبسطام بن قيس
وبجير وعفاف ابني أبي منيل وعامر بن الطفيل وعمرو بن ود وأشباههم وفي الإسلام مثل
الزبير وعني وطنحة ورجال من الأنصار وعبد الله بن حازم السلمي وعباد بن الحصين
وقال ما ظننت أن أحداً يعدل بألف فارس حتى رأيت عبداً لبنة كابل وقطري ابن
الفجاءة وشبيب الحروري وأمثال هؤلاء عدد الرمل والحصا ليس منهم أحد إذا أنت
توقفت على إخباره وحاله في شجاعته إلا وجدته فوق كل أسوار والرجليون للعرب
خاصة.

قال أبو عبيدة رجليو العرب المشهورون المنتشر بن وهب الباهلي وسليك بن عمير
المعدي ولوف بن مطر المازني وكان الرجل منهم ينحى بالظبي حتى يأخذ بقرنيه وإذا
كان زمان الربيع جعلوا الماء في بيض نعام مثقوب ثم دفنوه فإذا كان الصيف وانقطع
الغزو غزوا وهم أهدي من القطا فيأتون على ذلك البض ويستثيرونه ويشربونه وحدثني

أبو حاتم قال: حدثني الأصمعي أن السليك كان يعدو فتقع سهامه من كنانته بالأرض فترتز وكان يقول في دعائه اللهم إني أعوذ بك من الخيبة وأما الهيبة فلا هيبة. وقرأت في كتب العجم بهرام جور كان في حجر منك العرب بالبادية فنا بنغه هلاك أبيه وأن الفرس عزموا عني أن يملكوا غيره سار بالعرب حتى نزل السواد وصال بهم بالملك وجادلهم عنه حتى اعترفوا له بالحق ومنكوه.

وقد كان كسرى أغزى بني شيان جيشاً فاقتلوا بذى قار فهزمت بنو شيان أساورة كسرى فهو يوم ذي قار ثم كان من أمر العرب وأمر فارس حين جمعهم الله لقتالهم بالأمام وساسهم بالتدبير مالا حاجة بنا إلى الإطالة بذكره لشهرته.

ومما يملك عني تعزز القوم في جاهليتهم وأنفتهم وشدة حيتهم أن أبريز منك فارس وأشدّها سطوة وأتخانا في البلاد خطب إلى النعمان بن المنذر إحدى بناته فردده رغبة بها عنه ولم يزل هاربا منه حتى ظفر به فقتله.

وكان لقريش بيت الله الحرام العتيق من الجابرة المنصور بالطير الأبايل لم يزالوا ولاته وسدنته والقائمين لأمره والمعظمين لشعاره وكان يقال لهم أهل الله وجيران الله لثروهم الحرم وجوارهم البيت وكان فيهم بقايا من الخيفية يتوارثونها عن اسمعيل صلى الله عليه وسلم منها حج البيت الحرام وزيارته والختان والغسل والطلاق والعتق وتحريم ذوات الحارم بالقراية والرضاع والصهر.

وقد كان حاجب بن زرارة وفد عني كسرى فرأى العجم ينكحون الأخوات والبنات فسولت له نفسه التأسي بهم والدخول في منتهم فنكح ابنته ثم ندم عني ذلك فقال: لحا الله دينك من أغلف ... يحل الخوات لنا والبنات

أحشت عني أسرتي سوءة ... وطوقت جيدي بالمخزيات

وأبليت في عنقي سبة ... مشاتم يحين بعد الممات

فتاة تجملها شيخها ... فئس الشيخ ونعم الفتاة

ومما كان بقي فيهم من الخيفية أيامهم بالملكين الكاتبين حدثني بعض أصحابنا عن عبد الرحمن بن خالد الناقد قال كان الحسن بن جهور مولى المنصور خرج إلى بعض ولد سلمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب كتابا كان لعبد المطلب بن هشم كتبه بخطه فإذا هو مثل خط النساء وإذا باسمك النهم ذكر حق عبد المطلب ابن هاشم من أهل مكة عني فلان بن فلان الحميري من أهل زول صنعاء عليه ألف درهم فضة طيبة كيلا بالحديدة ومتى دعادها أجابه شهد الله بذلك والملكان: وقال الأعشى

ولا تحسني كافراً لك نعمة ... عني شاهدي يا شاهد الله فاشهد

قوله عني شاهدي أي عني لساني شاهد الله يعني الملك.

ومن ذلك أحكام كانت في الجاهلية أقرها الله في الإسلام لا يبعد أن تكون من بقايا دين اسمعيل صلى الله عليه وسلم منها دية النفس مائة من الإبل ومنها أتباع حكم المال في الحثي ومنها البينونة بطلاق الثلاثة ولزواج عني المرأة في الواحدة والاثنين فهذه حالها في الجاهلية مع أحوال كثيرة في العنم والمعرفة سنذكرها بتسميها بعد إن شاء الله ثم آت الله بالإسلام فابتعث منها النبي صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء وخاتم الرسل وناسخ كل شرعة وحائز كل فضيلة ونشر عددها وجمع كلمتها وأمدّها بملائكته وأيدها بقوته ومكن لها في البلاد وأوطأها رقاب الأمم وجعل فيها خلافة النبوة ثم الإمامة خالدة تُلدّ حتى يأتي المسيح صلى الله عليه وسلم فيصلي خلف الإمام منها فاردة لا يستطيع أحد أن يأتي

بمثلها وخاطبها وهي يؤذ لا عجم فيها فقال (كنتم خير أمة أخرجت للناس) فهذا فضل هذا الخطاب والأمم طراً داخلة عليها فيه وأما قوله لبي إسرائيل (وفضلكم على العالمين) فإنه من باب العنم الذي أريد به الخاص كقوله حكاية عن إبراهيم (وأنا أول المسلمين) وحكاية عن موسى (وأنا أول المؤمنين) وقد كانت الأنبياء قبلهما مؤمنين ومسلمين وإنما أراد موسى زمانه وكذلك قوله (وفضلكم على العالمين) يريد عالمي زمانهم وقوله لقريش (أهم خير أم قوم تبع و... من قبهم) ليس فيه دليل على أن أهل اليمن خير من قريش في الحب ولا أنهم مثلهم وهم من و... إاهيم صلى الله عليه وسلم ومن الذرية التي اصطفى الله على العالمين وليس لليمن والد من الأنبياء دون نوح وإنما خاطب الله بها مشركي قريش ووعظهم بمن قبهم من الأمم الهالكة لمعصيته وحذرهم أن يتزل بهم مثل ما أصابهم فقال (أهم خير) من أولئك الذين كانت فيهم التبابعة والمنوك ذوي الجنود والعدد فأهلكناهم بالذنوب والخير قد يقع في أسباب كثيرة يقال هذا خير الفارسين يريد أجندهما وهذا خير العودين يريد أصلبهما وكانت قريش كما قال الله قليلاً فكثروهم ومستضعفين فأيدهم نصره وخائفين أن تخطفهم المنوك فأمنهم بحرمه بما رصده لهم وأراد من تمكينهم وإعلاء كنيستهم وإظهار نوره لهم وتغيير ممالك الأمم لهم ومن ذا من المسلمين يصح إسلامه ويصح عقده يقدم على قريش أو يعادلها وقد قضى الله لها بالفضل على جميع الخيطة إذ جعل الأئمة منها والإمامة فيها مقصورة عنها أن لا تكون لغيرها والإمامة هي التقدم وهذا نص فيه حينة لتأول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش وروى وكيع عن الأعمش عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس تبع لقريش في الخير والشر وروى وكيع عن سفيان عن ابن حشيم عن

اسماعيل عن عبد الله عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قريشاً أهل صبر وأمانة فمن بغاهم الغوائل كبه الله لوجهه يوم القيامة وروى عن عبد الأعلى عن معمر عن الزهري عن سهل بن أبي حنيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تعلموا من قريش ولا تعلموها وقدموا قريشاً ولا تؤخروها وروى يزيد بن هرون عن ابن أبي ذئب عن الزهري عن طنحة بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قال أن لقرشي قوة رجلين من غير قريش قيل للزهري ما عنى بذلك قال فضل الرأي قال وكان يقال قريش الكنية الحسبة منح هذه الأمة علم عالمها طباق الأرض.

وحدثني يزيد بن عمرو عن محمد بن يوسف عن أبيه عن إبراهيم عن مكحول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يقوم من أحد لهاثمي.

وحدثني يزيد بن عمرو قال حدثنا نصر بن خلف الضبي قال حدثنا علي بن عبد الله ابن وثاب المدني عن مطرف بن خويند الهذلي قال سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل وهو يقول:

إني امرؤ حميري حين تسني ... لا من ربيعة آبائي ولا مضر

فقال ذاك اضرع لحدك وأبعد لك من الله ورسوله.

وحدثنا محمد بن عبيد قال حدثنا أبو زيد شجاع بن الوليد قال حدثنا أبو قابوس ابن أبي ظبيان عن أبيه عن سليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا سليمان لا تبغضني فتفارق دينك قال قلت يا رسول الله كيف أبغضك وبت هداي الله قال لا تبغض العرب فتبغضني.

وروى محمد بن بشر العبدي قال حدثنا أبو عبد الرحمن عن حصن بن عمير عن مخارق بن عبد الله بن جابر عن طارق بن شهاب عن عثمان بن عفان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي.

وروى حميد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن المؤمل عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اختلف الناس فالحق في مضر.

وروى أبو نعيم عن الثوري عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحرث عن المطلب بن أبي وداعة والمطلب بن ربيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه وجعلهم فرقة فجعلني في خيرهم فرقة وخلق قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً.

ثم يتنو العرب في شرف الطرفين أهل خراسان أهل الدعوة وأنصار الدولة فإنهم لم يزالوا في أكثر منك العجم لقاحاً لا يؤدون إلى أحد أتاة ولا خراجاً وكانت منك العجم قبل منك الطوائف تنزل بنخ. ثم نزلوا بابل ثم نزل أزدشير بابك فارس فصارت دار منكمهم وصار بخراسان منك الهياطنة وهم الذين قتلوا فيروز بن يزدجر بن مهر منك فارس وكان غزاهم فكادوه في طريقه بمكيدة حتى سنك سبلاً معطشة مهنكة ثم خرجوا إليه فأسروه وأكثر أصحابه فسألهم أن يمنوا عليه وعلى من أسر معه وأعطاهم موثقاً من الله أن لا يغزوه ولا يجوز حدودهم ونصب حجراً بينه وبين بندهم جعله الحد الذي حلف عليه وأطلقوه فنما عاد إلى منكته أخذه الأنفة والحمية بما أصابه فعاد لغزوه تاركاً لأيمانه غادراً بذمته وحمل الحجر الذي كان نصب أمامه في مسيره يتأول أنه ما تقدم الحجر فإنه لم يجزه فنما سار إليهم ناشدوه الله وأذكروه ما جعل على نفسه من عهده وذمته فأبى

الإلحاجا ونكثا فواقعوه فقتلوه وقتلوا جماته وكناته واستباحوا عسكره وأسروا ضعفته
ولبثوا في أيديهم أسرى ثم أعتقوهم وأطلقوهم وعبروا بعد ذلك زمانا طويلا وقتلوا
كسرى بن فيروز وهذا شيء يخبر به عن فارس فيما دونوا في سير منوكهم من أخبارهم
ومن أقر بهذا عني نفسه لعدوه وإباحة لخصمه فما ظنك بما ستر وزين من أمره.

وكان فيما حكوا من الكلام الدائر بين ملك الهياطلة وبين فيروز كلام أحببت أن أذكره
في هذا الموضع لأدل به على حكمة القوم وحزمهم في الأمور وعليهم بمكايد الحروب
قالوا لما التقى الفريقان ثم تصافوا لقتال أرسل أحسنوار ملك الهياطلة إلى فيروز أن يسأله
أي يبرز فيما بين الصفين ليكمله فخرج إليه فقال أحسنوار قد ظننت أنه لم يدعك إلى
مقامك هذا إلا الأنف بما أصابك ولعمري لأن كنا احتلنا لك بما رأيت لقد كنت
التست منا أعظم منه وما ابتدأتك ببغي ولا ظلم ولا أردنا إلا دفعك عن أنفسنا وحرمتنا
ولقد كنت جديراً أن تكون من سوء مكافأتنا عليك وعني من معك ونقض العهد
والميثاق الذي أكدت عني نفسك أعظم أنفاً وأشد امتعاضاً مما نالك منا فإننا أطلقناكم
وأنتم أسارى ومننا عليكم وأنتم مشرفون عني الهنكة وحقنا دماءكم وبنا عني سفكها
قدرة وإننا لم نجبرك عني ما شرطت لنا بل كنت الراغب إلينا فيه والمريد لنا عليه ففكر في
ذلك ومثل بين هذين الأمرين فانظر إليهما أشد عاراً وأقبح سماعاً إن طلب رجل أمراً فلم
يتح له وسلك سبيلاً فلم يظفر فيها ببغية وأمتسكن منه عدوه عني حال جهده منه وضيقه
من معه فمن عليهم وأطلقهم عني شرط شرطوه وأمر اصطنحوه عليه فاصطبر لكرهه
القضاء واستحيا من الغدر والنكث أم أن يقال نقض العهد وختر بالميثاق مع أي قد
ظننت أنه يزيدك الحاجة ما تثق به من كثرة جنودك وما تراه من حسن عدهم وما أجدي

أشك في أنهم وأكثرهم كارهون لما كان من شخوصك بهم عارفون بأنك قد جهنتهم عني غير الحق ودعوتهم إلى ما يسخط الله فهم في حربنا غير مستصرين ونياهم اليوم في مناصحتك مدخولة فانظر ما غناء من يقاتل عني هذه الحالة وما عسى أن تبلغ نكايته في عدوه إذا كان عارفاً أنه إن ظفر فمع عار وإن قتل فإلى النار فأنا أذكرك الله الذي جعلته عني نفسك كفيلاً ونعمتي عليك وعلى من معك بعد يأسكم من الحياة وإشرافكم على الممات وأدعو إلى ما فيه حفظك ورشدك من الرفاء بالعهد والاقتداء بآبائك الذين مضوا عني ذلك في كل ما أحبوا وكرهوا فاحمدوا عواقبه وحنن عليهم أثره ومع ذلك إنك لست عني ثقة من الظفر بنا والبنوع لبغيتك فينا وإنما تنس منا أمراً نلتس منك مثله وتبادي عدواً لعله يمنح النصر عليك فدونك هذه النصيحة فبالله ما كان أحد من أصحابك ببالغ لك أكثر منها ولا زائد لك عندها ولا يحرمك منفعتها مخرجها مني فإنه لا يزري بالمنافع عند ذوي الرأي أن تكون من الأعداء كنا لا يجب المضار إليهم أن تكون عني أيدي الأولياء ونحن نظهر بالله الذي اعتذرنا إليه ووثقنا بما جعلت لنا من عهده إذا استظهرت بكثرة من مقالتي ضعف أحسه من نفسي ولا قلة من جنود ولكني أحببت أن أزداد بك حجة واستظهاراً وأزداد به للنصر أه.

المرأة

(عليها عنماً صحيحاً أو دعها عني سداً جتها)

لأن تبقى المرأة جاهنة خير من أن تتعلم تعلماً ناقصاً. أو تربي تربية تافهة.

المرأة التي تظل محافظة على سداجها الأولى: فلم تعلق شيئاً من مبادئ العلوم والفنون. ولم تمارس القراءة والكتابة قد يتيسر لنا أن نقنعها بأنها جاهلة. ثم نوصيها بنزوم الرجوع في تربية طفلها إلى رأي من هو أعرف منها بشؤون التربية.

ومثل تربية طفلها تدبير ممرها وإدارة أحوالها ورؤية مصالحها: نحسن لما في جميع ذلك أن تعتمد على مشورة زوجها والخيرين من ذوي قرابتها. أما تلك التي تعلت تعنتاً ناقصاً ورأى أولياؤها أن لا يعطوها من مبادئ العلم سوى قراءة القرآن. وكتابة (أبجد هوز) و (جناب الأكرم) حاسين أن ذلك القدر أليق بها وأحوط في سلامة دينها وآدابها — هذه المرأة تصبح بهذا التعلم الحداج ذات عجب وعناد ولجاج. فلا تعود تصغي لمشورة من هو أعلم منها. ولا تقف في إفساد ابنها وتدبير ممرها عند حدا

تسيء الظن بزوجها فتغل يده عن استشارة ما لها والإنفاق على أطياها لتحسينها وتسميتها. تدبير شؤون المنزل على غير ما تقتضيه قواعد الاقتصاد وأصول الصحة ووسائل التطهير والنظافة. تحاول تربية أولادها فتخل بقوانين التربية وتفتت على المربي الخير اعتداداً بكفاءتها وإن معرفتها لقراءة القرآن جعلتها أهلاً لكل شيء، وعالمة بكل شيء، وخبيرة بكل شيء أيضاً.

تريد أن تنقن ابنها المراهق شيئاً من مبادئ الأخلاق والآداب فتحكي له قصص العفاريات والأساطير المكنوية أو تملي عليه أبيات غشوق وغرام كانت سمعتها من بعض أترابها في كتاب مخيف ركيك وضعه واضعه لتعليم الأحداث صناعة الترميل والإنشاء ما هي واقفة في رأس السنم تقول لابنها وهو ذاهب إلى المدرسة. حرطتك بكلمات الله التامة. سنتك إلى واحد أحد. امسك يا بني بالدرابزين جيداً لئلا تنزلق رجلك.

خرج الولد من باب الدار فإذا أمه قتفت به من النافذة وتوصيه بالابتعاد عن شاطئ البحر لئلا يفرق. وعن الكلاب لئلا ترعجه أو تعضه. وعن الحفر لئلا يقع فيها. ثم تلتح عليه أن يشد المنديل عني عنقه خوف لدغ البرد وأن يطبق المظلة عني رأسه خشية أذى الحر رجعت الأم بعد هذه الوصاية المتكررة إلى غرفتها. أرادت الإدلال عني زوجها والتباهي عني جارقتها فرفعت صوتها بتلاوة القرآن تارة ودلائل الخيرات تارة أخرى أوامري المطبخ لم تزل من دون تنظيف. أرض الدواليب لم تزل من دون مسح. طعام الغداء لم يزل الزوج يجهل أمره. ويتساءل ماذا عساه يكون؟ وضوفه كرام يجب أن يتجمل أمامهم ويكافئهم عني أياد لهم عليه. الطفل الصغير غلبه النوم في إحدى زوايا تلك الدار والذباب يطير من فوقه. والروائح الحبيثة تنبعث من تحته.

رأى الرجل الحالة عني ما وصفنا فنادى امرأته ورغب إليها أن تنهض لمراقبة أمور البيت وقيته الطعام.

تعاقلت المرأة عن زوجها. أو أن دوي صوتها بقراءة دلائل الخيرات حال بينهما وبين سماع النداء!

هتف بها ثانية فردت عليه بخشونة. وجعلت تؤنبه عني اساءته الأدب مع مؤلف دلائل الخيرات وأنها تخشى عليه أن يبطش بها!!

ضاق صدر الرجل فكاد يغضه بما لا يليق في حق أهل الله ثم سكت عني مضطرب ولا نعم ماذا جرى بين الرجل وامرأته. ولا كيف كان أمر الغداء. ولكن نذهب مع القاريء إلى تلك المرأة التي عرف أولياؤها كيف يعنونها وكيف يجعلونها تستفيد من الذي تلتقه. تزوجت فيا سعد زوجها بما. رزقت أولاداً فيا لسعادة أولادها من أجنها.

تعلمت القراءة والكتابة ولكن لم تتعلمهما لذاقتهما وإنما تتعلمهما لكي تتوصل بهما إلى درس حقائق أعنى وتحصيل فوائد أعنى.

قرأت القرآن بامعان وتفهم: فكانت تتناول بعض الآيات وتشرح معناها لأولادها شرحاً مفيداً غاية في السهولة والتخريب، غرست في نفوس أولادها عظمة الله تعالى ووجوب خشيته واستعداد المعونة والتوفيق منه.

وكثيراً ما أسمعهم الآيات التي تحض على ممارسة الخير والفضيلة. وتطلب منهم أن يستظهروا ألفاظها ويتفطنوا لمعانيها.

ولم نكتف من العلم بهذا القدر فقط بل رأيت (من الواجبات) عليها باعتبارها ربة منزل أن يكون لها إلمام ومشاركة بفن الهجين (حفظ الصحة) ثم لاحظت أنها لا تقدر على تربية أولادها تربية صحيحة ما لم تدرس فن الأخلاق وعلم النفس ومعرفة.

قالت: إنما أكون سعيدة إذا كان زوجي وأولادي أصحاء الأجسام ولا تدوم الصحة لهم ما لم أكن عارفة بالآصول والقوانين التي قررهما العناية في حفظ الصحة.

ثم ماذا تكون فائدة الصحة إذا لم يقترون بها أخلاق حسنة وتربية فاضلة؟ فمن ثم كان الواجب على أن أجمع بين درس الفنين فن الصحة وفن التربية.

كانت تحتس فرصاً من وقتها ثم تقبل على مطالعة الكتب التي وضعت في هذين الفنين الجليين. وكثيراً ما كان يستعصي عليها فهم بعض المسائل فتسأذن زوجها أن تكتب لبعض الأخصائيين في هذين الفنين. فكان يأذن لها منشرح الصدر هاديء البال.

قالت إذا كان الحجاب يحول بيني وبين التردد على أفاضل العناء في منازلهم فيها أنا ذا بحمد الله أستطيع الكتابة إليهم بعبارة فصحة فلا أدع الحجاب يحجني عن القيام بالفريضة الدينية وهي (طلب العنم).

وقد كتبت مرة إلى بعض نطس الأطباء تسأله رأييه في مهد طفنها عل تتخذها مما يهز باليد هزاً أو يكون ثابتاً يتحرك فكتب إليها يقول: (الأفضل أن يكون المهد ثابتاً لأنو الولد إذا اعتاد الترجح في الأرجوحة اضطرب نومه. وغلب عليه القلق والأرق أو تبقى يد الأم قابضة غنى دفعة السرير طول الليل وهذا مما يذهب براحتها ويحرمها طيب المنام. وإذا أرادت الأم أن تستزيد من الراحة لها ولطفنها فلا تستعمل عادة التقييط فتشد إلى أعضاء الطفل وتجمعه كطرد البوسطة (أو كالمومياء المصرية. وشد الطفل غنى هذه الصورة يضايقه ويضطره إلى البكاء ومتابعة الشكوى من هذا الظلم الفادح. ولكن الأم الجاهلة لا تتبه لسبب بكائه فحبه إنما يكي فجوراً منه أو نكاية بها فتأخذ في هز المهد والتسخط عليه وعنى القدر طول الليل أد.

ومما رأت هذه الأم الفاضلة أنها في حاجة إلى تعينه — مباديء الكيمياء ودرس طباع المعادن وخواص الأجسام فتعرف الضار منها من غير الضار والسام من غير السام. وبعد خمس عشرة سنة من زواجها صار لها بضعة أولاد فكانت بعد رجوعهم من المدرسة تكثر من مفاكهتهم ومداعتهم ثم في غضون ذلك تودع نفوسهم مسائل العنم واحدة فواحدة. ولا أنسى إذ كانوا مرة في صحن الدار وكانت الحاجة (طباختهم) قد ذهبت إلى بيت الجيران في بعض شأنها.

فنادت الأم أولادها قائلة ذهبت (الحاجة) وسوف تمكث عند الجيران أكثر من ساعة إذ أننا نعرفها تكثر الحديث وتحسن الأقايصير فننتم فرصة غياها أيها الأولاد ولننزل إلى المطبخ ونشاهد ما فيه من الأواني والأدوات المختلفة. أظنكم أيها الصغار لا تعرفون أنواع المعادن. وأن في المطبخ من المعادن مجموعة نفيسة: هنوا معي إليها — فتراكض الأولاد وراء أمهم مسرعين.

آه ما أحسن تصفيف هذه الأواني وما أشد ما اعتنت الحاجة بتنظيفها. شكراً لك أيتها العجوز.

انظروا هذه المقالي والقذور الصغيرة فهي من النحاس. والنحاس معدن نافع جداً يستخرج من جوف الأرض والذي يصنع منه الأواني يسمى نحاساً. وهذا النحاس يتوصل إلى صنع القذور النحاسية بوضعها على السندان وضربها بالمطرقة الضخمة ثم التفتت إلى ابنها الصغير (وهي) وقالت هل تعرف يا وهي ما هو السندان وما هي المطرقة؟ قال نعم يا أمه كنت أريتيهما في حانوت الحداد القريب من دارنا.

انظروا هذه القدر التي وضعتها (الحاجة) في ناحية بعيدة عن سائر القذور.

أتعرف السبب في ترك استعمالها؟

كلا يا أمه!

ألستم ترونها كامدة اللون؟

بنى يا أمه.

احتزروا أيها الأولاد من أن تضعوا شيئاً من هذه المادة الخضراء في أفواهكم: هذه البقع يستوفها (الزنجار) وهو أحد السوم القتالة لتظر الآن في القدور الأخرى النظيفة التي نطبخ فيها.

داخلها لامع نظيف. وهو مغطى بطبقة رقيقة من معدن أبيض وهذا المعدن يسمى (قصديراً) وليس القصدير كالنحاس في تولد سم الزنجار عنده ولذلك يطنعون به النحاس إذا طينا النحاس بطبقة رقيقة من القصدير قيل أنه (مبيض) أما إذا مزجنا النحاس والقصدير معاً بعد صهرهم كان لنا منهما معدن يسمى (برنزاً). والفتت إلى ابنها (حسي) وسألته هل تعرف معنى الصهر؟ قال لا. قالت الصهر تذويب المعادن وجعلها بحالة السيلان. ثم قالت لهم هو ذا شمعدان من معدن البرونز. والجوهر الصغير المعلق على باب الدار يعنى مجيء القادمين من وقت إلى آخر هو من البرنز وأجراس الكنائس التي تسعون أصواتها متخذة من البرنز أيضاً. وكانوا قديماً يصنعون المدافع من البرنز وبقوا على ذلك زمناً.

وكان الشر في أول أمرهم يستخدمون شظايا الأحجار (أي قطع) في ضروب مرافقهم فكانوا يتخذون منها سكاًكين وفؤوساً ويسمى ذلك العصر بالعصر الحجري. ثم امتدوا إلى النحاس ومزجوه بالقصدير فحصلوا على معدن البرنز ومن هذا البرنز كانوا يصطنعون أسلحتهم وأدواتهم وما زالوا على استعماله حتى عرفوا الحديد في العصور الثالثة ويسمى هذا الطور الثالث لبشر (العصر الحديدي).

والحديد أنفع المعادن قال تعالى (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس). فاعترض (حسي) والدته وكان أكبر أخوانه قائلاً: يا أماه وهل نزل الحديد من السماء؟ قالت كلا

وإنما خرج من الأرض قال فكيف يقول الله تعالى (وأنزلنا) قالت أن معنى (أنزلنا) هنا وهبنا ومنحنا.

ثم قالت لهم: لو س الحديد جميل المنظر ولا هو بذي لمعان وبريق كغيره من المعادن ولكن مع هذا لا ينبغي لكم أن تحكوا عَنَى الشيء بمجرد النظر إلى هيئته الظاهرة. فإن للحديد مزايا لا توجد في سواه. أعظم تلك المزايا صلابته ومقاومته للضغط الشديد الذي يقع عليه. وهذا الموقد من الحديد. ويستخرج الحديد من الأرض ممزوجاً بشوائب آخر فيصهرونه بواسطة موقد كبير حتى يحصوه من تلك الشوائب. ويسمى الحديد بعد هذا التحيص (حديد الصلب) وهذه القدر الصغيرة من ذلك الحديد. وإذا طينا الحديد بالقصدير خرج لنا معدن هو (الصفح) وهذه الآنية الصغيرة التي نسوي فيها القهوة من الصفح. وإذا أضيف إلى الحديد مقدار قليل من الكربون ازداد صلابة وسمي حينئذ (فولاذاً) وهذه السكين التي ترونها عَنَى (الترابيزة) متخذة من الفولاذ.

لنفتح الآن درج (الترابيزة). (هذه ملاعق من القصدير المزوج بمعدن آخر لين ثقل هو الرصاص).

ثم قالت لهم مشيرة إلى الجدار: انظروا إلى المرأة. المرأة نديم المرأة ومن عجيب أخلاق النساء أنهن يحرصن عَنَى اصطحاب هذه الأداة حتى في المطبخ! هذه الطبقة الالامعة التي تغطي سطح زجاج المرأة من وراء والتي بسببها تنعكس صوركم إلى عيونكم — هي مزيج من القصدير والرئيق.

والزئبق معدن أبيض لونه كلون الفضة وإذا كانت حرارة الهواء اعتيادية كان الزئبق في حالة ميوعة. حتى إذا أردت القبض عليه بيدك فر وتغلّت من بين أصابعك. ومن أجل ذلك كفى عنه غواة الكيمياء القديمة بالعبد الفرار. واشدوا في بعض منظوماتهم:

خذ الفرار والطلقا ... وشيئاً يشبه البرقا

فإن أحكمته سحقا ... منك الغرب والشرقا

ومعدن الزئبق يذكرنا بالفضة. انظروا أدوات الفضة. ها هي منضودة بعضها فوق بعض في الخزانية. انظروا الملاعق والشوك ما أشد لمعانها وما أكثر بريقها. والفضة من المعادن الشينة. وهو قلما يتغير لونه مهما تعرض للهواء وهناك معدن آخر أثبت منه وأقل تغيراً. هو معدن الذهب. انظروا إلى خاتمي هذا: فهو من الذهب. ولست في حاجة إلى جلالة أو تنظيف. فإذا ضفتم إلى هذه المزية مزية لمعانها الجميل ومزية ندرة وجوده عرفتم إذ ذاك مبلغ نفاسته وفضله على سائر المعادن. والنقود ذات القيمة العالية تتخذ من الذهب لكنهم يضيفون إليها قليلاً من معدن النحاس ليكسبها فضل صلابة. هللوا بنا أيها الأولاد تضع كل شيء في محله وترتب الأدوات الفضية كما كانت أولاً ولنعد النظام إلى هذه المملكة فإن المطبخ هو مملكة (الحاجة) التي لها فيها مطلق التصرف.

كيف أيها الأولاد أما جعتم؟ إن هذه الروائح الطيبة المنتشرة فوق القدور تبشرنا بغداء شهى لذيذ. ها هو اللحم ينضج. وإني أقول لو كانت طباحتنا (الحاجة) هي وقدورها في بلاد (الإسكيو) لكان لها شأن بذكر.

قالوا ولماذا يا أماه!

قالت الإسكيو سكان الشمال حيث الجليد الدائم وليس لديهم معدن يتخذون منه قدوراً ولا تراب يصنعون منه أو ابي خزفية. فإن التراب إذا استحكم جفائه أصبح صلباً صبوراً على احتمال النار. ومن لم يقدر على اقتناء قدر من نحاس اقناها خزفاً. وإذا فقد النحاس والخزف فكيف يمكنه طبخ طعام! والإسكيو كيف يصنعون؟

يتخذ الإسكيو مكان القدور جراباً من جند وفي هذا الجراب يطبخون ما يقتاتون به من لحم. فصرخ أحد الأولاد: كيف ذلك يا أمه! إنهم إذا أدنوا الجراب من النار احترق وإذا أبعده عنها لا يغلي الماء ولا ينضج اللحم.

قالت أمهم نعم. ولكن الإسكيو اهتمدوا إلى طريقة وافية بالغرض. وذلك أنهم يبحثون في شواطئ البحار عن مقادير من الحصى الصغيرة ثم يطرحونها في النار فتحس حتى تصل إلى درجة الحمرة فيتناولونها إذ ذاك ويضعونها في جراب الجند حيث يكون اللحم والماء. فلا تلبث الحصى أن تطفئ وتحدث حرارة قليلة في الماء. ثم يكررون العمل ويزاولونه المرة بعد المرة وبهذه الصورة تشتد حرارة الماء ثم ينضج اللحم.

ولم تصل أم الأولاد في حديثها إلى هذا المكان حتى سمعت صوت الجرس (البرنز) يرن على باب الدار يعن رجوع (الحاجة) فصرخت لأولادها هلموا بنا قبل أن تروا فترعم أننا أفسدنا ثمنكتها وشوشنا عليها نظامها. فتراكضوا جميعهم من باب المطبخ مسرورين ضاحكين ولأبيهم المقبل مصافحين ومعانقين.

المغربي

إذا كان المرء ساعياً في إصلاح داره يجب في الأكثر أن يسترشد بآراء من سبقوه إلى إصلاح دورهم ليضم اختياره إلى اختبارهم ويقتصر عليه مسافة عنه وربما أتى بعضهم وآراهم ما هو آخذ بسبيله فإن قدر أن يعمل بآرائهم كلها إن كانت صائبة وإلا فلا أقل من أن ينتفع ببعضها.

أولع الغربيون منذ حدث انقلابنا العثماني الأخير بالبحث في شؤوننا بعد أن كانوا يسوا من إصلاحنا فصار بعض خاصتهم يزورون العاصمة وبعض الولايات ويكتبون تصوراتهم عن السلطة العثمانية وقيسون الحاضر بالغاير فبعضهم يستهزئ بنا وبانقلاباتنا وهم في الأكثر أرباب الأغراض السياسية وفريق يتوسط فينزج استحسان ما يتحنه باستهجان ما يستهجنه ومن هذا الفريق المسير مارتين هرقمس أحد علماء المشرقيات في برلين. وهو من الذين قضوا سنين طويلة في سورية وعرف طبع المنكة العثمانية واشتهر بمعرفة العربية من تأليفه التي نشرها وهو يجيد الكتابة والفهم بلغتنا كأحد فضلاء كتابنا في أحوال المسلمين ولا سيما في البلاد العثمانية والتركمان الصينية.

زار هذا المشرق عاصمة السلطنة وبعض قواعد بلاد الروم أيلى فكتب كتاباً بالألمانية وصف فيه ما شاهده في رحلته وقد اطلعنا على زبدة من كتابه في مجلة العالم الإسلامي الفرنسية فأثرنا الإشارة إليها ثم نعلق عليها ما آخذناه به من حكمه على المسلمين والإسلام ليرى أهل هذه الديار ما ينصح لنا به جيراننا لإصلاح بيتنا قالت المجلة: أراد بكتابه أن يعرف ما رآه وما سمع به مدة مقامه في البلاد العثمانية فأورد ما انتهى إليه من المواد على علته ولم ينظر فيه نظرة أخيرة ومهما يكن فإن كتابه يتنى بأمعان وفائدة لأنه من أفيد ما ظهر من الأسفار على البلاد العثمانية حديثاً وربما ظهرت على كلام المؤلف

رشاشة من سوء النظر في العواقب ولكن ما لا مزية فيه أنه كفو في الموضوع الذي خاض غماره لا غرض له بل هو نظار جدير أن يحل كلامه موقع الاعتبار.

ربما قيل للمؤلف أن مقامك قليل في تلك البلاد فكيف ساع لك أن تحكم بهذه السرعة فقد رأينا من يطينون مقامهم في بند يبالغون بمثالة المسائل الرسمية والحياة الإدارية متسرعين ويطرحون النظر في حياة السواد الأعظم من العامة فيفوقهم كثير من المسائل الاجتماعية ذات الشأن العظيم على أن السائح قد يلاحظ هذه المسائل أحسن من المقيم. وهناك اعتراض آخر وهو أن المؤلف قال إن كتابة عبارة عن سلسلة رسائل غير سياسية والنظر فيها تتجنى له السياسة من أعطافها وأطرافها لأول وهلة. ويرد هذا الاعتراض بما هو معروف عن المسوهرتمن من عدم التحزب لفئة وأنه يحاول أن ينصف الكل فهو لا يبغيض أحداً ويرمي إلى أن تعمل كل أمة وكل جماعة وكل شخص في خدمة المدنية والحضارة ما ساعدتها أسبابها. فقد رأيناها يأسف عندما يرى العنصر الإسلامي وهو ممن يحبه لا يسير إلى هذا الغرض لأن الجنع بين الشريعة وبين مطالب الحياة الحديثة لا يخلو من تناقض. وهو يرى أن فكر الارتجاع في الأمستنة والمدن الكبرى في الولايات غير موجود ولكن إذا انقضت أيام السياسة الحميدية فإن نتائجها ما انقضت.

قالت اللجنة ولو قلنا في العام الماضي أن على الحكومة العثمانية إذا أرادت الاستعاع بالبدور التي يحويها القانون الأساسي في مضايده أن تربي الأمة تربية دستورية ديمقراطية فهذا مما تشدد حاجتها إليه. أيد المسوهرتمن هذا الرأي فقال أن الانقلاب العثماني لا يشبه الانقلاب الفرنسي فقد كانت الأمة في فرنسا تتبع القائمين بالثورة متحسة وتشاركهم في آرائهم أما الشعب العثماني فلا يزال على آرائه القديمة ولذلك أرادته

المؤلف أن يرجع عنها وأقسم عليه أن ينظر للأمور نظراً صحيحاً لأن ارتفاع كلمة العثمانية معلق على اعتدالهم ويمكن أن يكون للنساء العثمانيات عمل عظيم في النهضة الوطنية.

وقد درس المسوهرتمن حالة الاتحاديين السياسية في سلانيك ولا سيما تأثيرات طائفة الدعة وفيها وهم شعب إسرائيلي دا — بالإسلام. وجاء الأستاذان يبحث عن كل شيء من سياسة ودين وأدب وصحافة وحياة اجتماعية وعقنية واقتصادية. وانتقد الإسلام انتقاداً شديداً فقال أنه يراه عقبة في سبيل الإصلاح فلا رجاء معه لتنظيم الإدارة. والطرق الدينية في الإسلام تختلف عن الطرق الدينية في النصرانية لأن لها تأثيراً سيئاً وأن ما يظهر من أمرها يفسد الدين ويقلل من اعتباره. فأهل الطرق البكداشية والملامية والمولوية والنقشبندية والقادرية على اختلاف أسمائهم. هم خطر على الأمة مهما كانت مكانتهم وإن اتفقوا مع أهل التربية الحديثة من العثمانيين وهؤلاء ملاحدة يعرفون كيف يتظاهرون بالدين واحترام الشريعة. ورجال الدين على الجملة هم قوة عاملة محترمة وإن قلّ التسامح فيهم.

يقول المؤلف أن تسعة أعشار رعايا المملكة العثمانية متعصبون فالأكراد أكثر تعصباً من غيرهم ويقل تمسك العرب بالدين في باطنهم فهم أقل تعصباً وليس المسلمون من الألبانيين من التسامح على جانب عظيم وأهالي البوسنة الذين انفصلوا حديثاً عن المملكة العثمانية موغلون في التعصب وأدعياء للغاية. ومن الأسباب التي تساعد على بقاء الحية الدينية مظاهر شهر رمضان للنوعه فالدين عليه الحكومة ويصعب الآن أن يكون من الأعمال الخاصة بالنفس.

تدخل الأفكار الغربية البلاد العثمانية ببطء فالاشتراكية التي ينشرها البنغاريون خاصة في البلاد ومنهم رئيس منتدى سلانيك حيث تقرأ المطبوعات الفرنسية والألمانية في هذا الموضوع ولهم أشياء من الروم وتصدر في أزمير جريدة اشتراكية رومية كما تصدر جريدة إسلامية اشتراكية وإذا كان قراؤها على ما هو معلوم من حالتهم صعب أن يكون ارتقاؤها سريعاً بين المسلمين. فليس في البلاد العثمانية طبقة وسطى كما في سائر ممالك أوروبا.

ويتيسر للمرأة العثمانية أن تكون ذات نفوذ فقد رأيتها في سلانيك ترقى بسرعة خارقة للعادة. ولكن ارتقاءها في البلاد الأخرى بطيء جداً. ويمكن أن يقال أن حالة المرأة العثمانية أحط من المرأة المسلمة في روسيا التي تستعج بحرية عظيمة فتيسر لها أن تدرس في المدارس الثانوية وهم يهتمون بما يجري في آسيا الوسطى والشرق أكثر من كل بند سواه وربما كان المسلمون في روسيا غالباً أثقب أذهاناً وعقولاً من حكامهم الصقالبة أه. هذا منخص كتاب الباحث الألماني وفيه الجيد ولكن فيه مغامر كثيرة لا نحب أن يفوتنا النظر فيها نعرضها على المؤلف وعلى القارئين بحذبه وأولها وهو ما كنا نرجو أن لا يقع فيه أمثال الأستاذ هرتس قوله أن الجمع بين الشريعة وبين طنب الحياة الحديثة لا يخلو من تناقض وأن الإسلام عقبة في سبيل الإصلاح ولعل المؤلف يقصد من ذلك الشريعة النافذة في بلاد الياسمين اليوم وبعضها مما يخالف الأصول الصحيحة وهدى الشارع وأصحابه وتابعيه والأئمة المهديين والعلماء العالمين.

لا جرم أنه دخلت بدع وخرافات وموضوعات على الإسلام عبثت بحمالة وكادت تضع به أصوله لو لم يقيض له في كل زمن مجددون ومصنحون يدعون الأمة إلى الوقوف عند

حد الكتاب والسنة وطرح الزوائد التي تضر ولا تنفع وأكثرها مما تسرب إلى الدين من الوثنية الأصنية وسرى إلى الإسلام كما سرى إلى اليهودية والنصرانية من قبل. فالإسلام دين التوحيد وهو أكثر الأديان تشديداً فيه وحرصاً عليه ومع هذا نرى بدعاً دخلت عليه تكاد تقربه من الوثنية لولا سلامة الأصول المحررة المعبرة وقيام الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر في كل مصر وعصر.

لم يعهد المسلمون أيام كانوا يدينون بالإسلام الحقيقي أن دينهم كان مانعاً لهم من الرقي الاجتماعي والأدبي والعلمي والسياسي فالدين الذي جعل من أموال الأغنياء صدقة للبيّاسين والمعوزين قد فرض عني متحنيه ما يستلزمه بالتضامن والتكافل فلم تنشأ فيه الاشتراكية المتطرفة التي قتر لها أعصاب المفكرين في الغرب اليوم. والدين الذي يأمر كتابه في الزواج بقوله فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع وأن ختم أن لا تعدلوا فواحدة إلى أن قال ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم قد قتل من العهر والفجور وحفظ نظام البيوت أحسن حفظ وراعى حقوق المرأة ومن سنة الطلاق لزوجين لم يتأت أن يتعاشروا بالمعروف ليس فيه ما يؤخر المدنية ويحول دون سعادة أهله ولكن خفف بعد السنف خفف أضاعوا الأصل والفرع وانتهكوا حرمة الله وجهنت الأمة فأغنطت حجاب المرأة بعد أن كان رقيقاً معقولاً حتى منع الرجال من الاختلاط بينات حواء فنشأت عن ذلك مضار ومنافع والمضار أكثر ولو وقف الحجاب عند حد ما رسمته الشريعة من أن لا يدي النساء زيتهن إلا لبعولتهن ويضربن بخنصرهن عني جيوبهن لكان نظام البيوت في المسلمين اليوم أرقى مما هو وخلصوا من معاكسة

الطبيعة في رغائب النفس والتفهم الجسنان أكثر من الآن ولما أصبحت حياة رجالنا وحياة نسائنا لا تخلو من نقص وغفص.

والدين الذي يأمر صاحبه أصحبه أن يتعلموا لغة اليهود والحبشة ويبحث على تفهم أسرار الكون من طرقها حتى لم يأت على الإسلام قرنان ونصف إلا وقد تناول أهله بمعونة الخلقاء وما عرف من علوم البشر وتداولوه بينهم وصغوه بصفتهم حتى أنشؤا لهم مدنية لو لم يكتب لها القيام لانقطعت من العالم سلسلة علوم المصريين واليونانيين والرومانين والفرس والهنود ولاضطر أهل المدنية الحديثة أن يرجعوا مبتدئين بالعلوم بحيث لا يتيسر لهم تأسيس المدنية التي أسسوها في ثلاثة قرون إلا أن تؤسس في عشرين أو ثلاثين قرناً - إن ديناً هذا شأنه وهو لم يمنع أيضاً من تعلم العلم والفلسفة ليس من الأديان التي لا تنطبق مع روح هذا العصر.

والدين الذي انتشرت كلمته في الآفاق وسلاحه الهداية والرفق بالمستضعفين وحمية العاجزين وجهاد المنافقين والخائنين حتى دانت به أمة كثيرة عن رضى هو دين لم يخرج عن المعقول من استتباع الناس وإرشادهم ومعظم الفتح التي ينتقدها عليه الناقدون هي للاستعمار ومع هذا لم يحدث فيها من الولايات ما يحدث لأكثر دول التمدن الحديث عندما قم أن تستعمر قطراً من أقطار الشرق.

وإننا لنرى الغربيين في أحكامهم على الشرق يخالفون ما يجرون عليه في بلادهم فترى الدول الراقية منهم في آدابها هي التي تحافظ على دينها فقد رأينا ألمانيا قد احتفظت بالنصرانية المشربة أي البروتستانتية ولم تعقها عن سيرها في مدارج الكمال العلمي والصناعي والاجتماعي وكذلك نرى انكثرا تفرص كألمانيا على تقاليد القديمة حتى عد

الاجتماعيون من جهة ارتقائهم أنفسهم لم ينبذوا الدين كما نبذوا رجال فرنسا فكان منه الولايات حاضرها ومستقبلها. وما نظن النصرانية لو أنصفا أكثر انطباقاً على قوانين العلم من الإسلام.

ولو قال الأستاذ هرقمن أن حالة المسلمين اليوم لا تنطبق على الإسلام أمس ولذلك يصعب قيام الإصلاح بينهم لأصاب الغرض بعض الشيء فقد ذكر الطرق الدينية التي تفسد الدين وتقلل من اعتباره في الأنظار ولو أنصفا ونظرنا إلى من أسسوا تلك الطرق لرأيانهم على جانب من الأخلاق الفاضلة والتدين الحقيقي وأكثرهم كانوا من جهة علماء الإسلام العاملين لا المعطلين الجامدين.

وهذا الجحود لم يحدث إلا في القرون المتأخرة بصنع أناس لأخلاق لهم من الملوك أملاوا لرؤساء المذاهب والطرق ليتخذوهم ذريعة إلى السياسة كما اتخذ الشاه عباس الصفوي من مذهب الشيعة مسنداً له في سياسته فاستعمل العلماء واسطة للتفريق بين أجزاء الأمة ونشط كل ما أملاه التعصب الذميم وسكت عن كل قصور وكذلك فعل السلطان سليم العثماني وقتل من الشيعة أربعين ألفاً في وقت واحد في الأناضول بحجة دينية والحقيقة أنه لا يقصد غير السياسة.

فالملوك المتأخرون استعملوا الدين ذريعة إلى الدنيا وعثوا أسراً بحرم الله وأدخلوا في الدين ما لبس منه وجعلوا العامة مسيطرين على الخاصة ففسد النظام وعاق ذلك سير الإصلاح في القرون الجامدة وإلا فأى مانع اليوم يمنع العثمانيين ولا مينا المسلمين منهم من الرقي وقد ارتفعت أكثر الحواجز والقيود بفضل القانون الأساسي الذي لا يناقض أصلاً من

أصول الشريعة وإذا رأينا بعض تناقض وجب علينا أن نفسر الشريعة لتطبيقها على العلم كما يأمر بذلك العلماء الراسخون.

أما اغتباط الأستاذ هرقمن بحال المسلمات في روسيا من أنه يباح لمن الدرس في المدارس الثانوية والعالية مع الفتيان فهذا على إطلاقه لا يصح أن يكون حجة على المسلمات العنانيات والاختلاط إلا إلى حد محدود لا يخلو من مفاسد يعرفها علماء الأخلاق في الغرب وهم منها أكثر شكاية منا ويرجى بفضل الأفكار الغربية التي تدخل ببطء إلى بلادنا كما قال المؤلف أن تكون بعد اليوم حال المرأة المسلمة أكثر انطباقاً مع المدنية والعقل والشرع فليس كل ما نراه هو ما كان عليه السلف الصالح كما قلنا.

وإن معظم ما نشكو منه من أمراضنا الاجتماعية ليس الدين منشأؤه بل الجهل بأمور الدنيا فيتبعي لنا قذيب نسائنا وتعريضهن على الأصول الدينية والمدنية ورجلنا كذلك وعندئذ لا يرمي مثل المسيو هرقمن أهل هذا الدين كنه بما رماهم به ونحن نرى اليابان وهي الدولة الوثنية من أرقى دول الحضارة الحديثة ولم تعقها وثنتها عن ذلك ونظن المؤلف يوافقنا على أن الإسلام بما دخله من خرافات المتأخرين أكثر اتفاقاً مع المدنية من وثنية يابان.

فحياة الأمم بالدين الذي لا يمازجه تعصب أكثر منها بالانحلال من كل دين وأمة لا قديم لها يصعب عليها الارتفاع بحديثها كما فعلت فرنسا فأرادت نبذ كل قديم وإحلال الحديث مكانه فخسرت الصفتين أو كادت ولو ربي شعبها تربية دينية خالصة مع ما يلقه من التربية العصرية لما شكت فرنسا من زيادة العهر فيها وقلة نفوس سكانها سنة عن سنة وإنما نعتقد أن قلة التسامح الذي نراه في الجامدين من أهل الطرق وأدعياء

الدين يقل جداً من السنطة يوم نعلمهم أو نعلم أبناءهم التعليم الوسط المنظم دع عنك العالي وحياتنا مناة باستارتنا ولا جهود إلا مع الجهل. وطريقة دينية على أصولها يدخلها النشوء والإصلاح بحسب سنة النمو والتدريج أنفع من طريقة دنيوية لا تتشربها نفوس من تعرضها عنهم ولا تناسب تقاليدهم وأوضاعهم.

الشعري

إذا غابت الشمس ساعة في هذه الأيام سرح طائر نظرك على منفسح الأفق تر كوكباً متوقداً يرتفع شيئاً فشيئاً بأهية وجلال وهو يزيد تألقاً كلما زادت الظلمات حلكة ويرتفع في القبة الزرقاء في جهة الجنوب الشرقي. فهذا الكوكب هو الشعري العبور وهي التي ترصع جهة الرقيع بهذا القصر البديع بحيث يصدق ما قال فيها عبد العزيز بن عبد الله بن طاهر وهو من ظريف ما قيل فيها:

واعترضت وسط السماء الشعري ... كأنها ياقوتة في مدري

وقال فيها ابن المعتز:

شربتها والديك لم يتبه ... سكران من نومته طافح

ولاحت الشعري وجوزأؤها ... كمثل نرج جره رامح

وشبه أبو نواس الدرهم بها فأنشد:

أنعت صقراً بغلب الصقورا ... مظفراً أبيض مستديراً

تخاله في قده العبورا

فهذا الكوكب لحسته عبده قوم من العرب في الجاهنية وإليه الإشارة في سورة النجم وإنه هو رب الشعري وكان العرب قد أخذوا هذه العبارة عن جيروانهم المصريين الذين كانوا

قد ألهوها لأنهم كانوا ينسبون إليها فيضان النيل. وقد زادت شهرتها هيام شعراء الأمم كلها بحسنها ونقاء ضيائها الأزهر. وأثبت لهم الخيال أجنحة طاروا بها في عالم الخال. لا رادع لهم يردعهم ولا وازع لهم يزعمهم فكم من شاعر ذهب إليها بالوهم فسكن فيها ونظر منها إلى الأرض بل وكم منهم من تعود هذه الفعال بدون أن يتروى في ما يقوله من الخال. فهذا فلتير قد وضع أحذوثة اسمها الصغير الكبير (مكروميغاس) جعل المروي عنه واحداً من سكان الشعري. ثم بنى على هذا الوهم ما بنى ومثله فعل رنان فإنه قال: إذا أراد الإنسان أن يرى محاسن الأرض فليرق إلى الشعري فإنه يجد فيها أحسن مرقب يرقب منه هذه الحبة الخضراء المعروفة عندنا باسم الغبراء ولا يخفى ما في ذلك من الوهم المستحيل لأن شدة الحرارة الشعري تمنع أيّاً من كان من أن يدخلها إذا ما بنفها. بل تميت أيّاً من كان قبل البلوغ إليها.

فلندع إذاً أهل الخيال في جوهم يبحون وأهل الخال في ميدان تصوراتهم يرحلون ولنأت إلى محالسة أهل العلم من العصرين ولنسألم عما كشفوا لنا من الأنباء ولنطلب إليهم أن يهتكوا لنا شيئاً من استثار مظاهر الحفاء ولنسمع ما يرويه عينا أحد أكابر الفنكيين وهو العلامة شارل نوردمان من جنة علماء باربراد يقول:

إننا نرصد كل مساء الشعري العبور ونثبت بواسطة المرقب نورها فتحلله تحليلاً يثبتنا عما هنالك من الغرائب والأسرار الغامضة وتروي لنا هذه الرسول الصغيرة في أعيننا حقائق ودقائق تأخذ من قلوبنا أي مأخذ حتى أنها ترفعنا إلى أعالي لم يرق إليها الخيال بأجنحة الذهبية.

والشعري تبعد عنا نحواً من خمسمائة مرة من بعد الشمس عنا. ونورها إلينا لا يصل إلا في مدة تسع سنوات. أي أنك إذا رأيت نورها اليوم فهو لم يشرق عنك إلا قبل تسع سنوات والذي تراه اليوم كان قبل تسعة أعوام. وإذا حدث فيها حادث جديد في يومنا هذا فلا يمكنك أن تراه إلا بعد أن تمشي عليه هذه المدة المذكورة لأن النور يقطع في الثانية ثلثمائة ألف كيلومتر. فالظاهر إذاً أن الشعري البعيدة عنا بعداً عجباً ومع ذلك فهي قريبة منا بالنسبة إلى سائر الكواكب التي قد ذر قروناً منذ ألاف من السنين ونورها إلى اليوم لم يبلغنا. ونحن نعلم اليوم أن الشمس والشعري لينا إلا كقطرتين من بحر عجاج متلاطم بأفواج الأنوار ذاك البحر الذي نسميه نجرة والحال أن النور لا يقطع عرض النجرة إلا في مدة خمسة وعشرين ألف سنة. والشعري مع هذا هي إلينا أقرب هذه الكواكب المنتشرة على بساط النجرة من سواها وعليه فرصد الأرض من عنو الشعري لمن التخيلات المتوغنة في الحال. وقد أتيج للفلكي المذكور أن يقيس بوساطة مذكورة في علم البصريات ليعرف درجة حرارة جو الشعري فوجده لا يقل عن ١٢٠٠٠ درجة. ولا يستطيع أن يتصور عنو هذه الدرجة البعيدة في الحر إلا إذا قاربنا حالتنا في أيام الصيف عندما يشتد أعظم الاشتداد فلا نستطيع أن نتفس ولا نتحرك ومع ذلك لم يبلغ الحر إلا ٤٠ — ٥٠ درجة. ثم ما الحال لو قاربنا تلك الحرارة بدرجة غيان الماء وهو لا يكون إلا في مائة درجة. وما عسى تكون تلك المقابلة لو عتينا أن أعظم حرارة تبلغ الإنسان إلى الحصول عليها على الأرض هي ٣٥٠٠ درجة وذلك في القوس الكهربائية. وإن حرارة الشمس نفسها لا تزيد على ٥٣٠٠ درجة في جوها المعتدل. وعليه فتكون حرارة الشعري أقوى من حرارة الشمس ثلاثة أضعاف تقريباً. ومع ذلك فيوجد كواكب أخرى

أحر جواً من الشعري وذلك في صورتى الثور وحامل رأس الغول المعروف أيضاً باسم
سياوش. فكيف بعد ذلك يمكننا أن نسبع ظلمات شعرائنا الذين يقولون برودة
الكواكب والنجوم. نعم إنهم مصيرون إذا أرادوا بذلك أن الكواكب لا تضيئهم بكنة إذا
ما شكروا لها ضيئهم وإلا فلا. والأولى بشعرائنا العصريين أن يستعبروا لهم برودة غير
برودة الكواكب.

هذا وقد أدت الحسابات اليوم لا بل وأبسط الحسابات أن الشمس لو كان لها جو مثل
جو الشعري لما كانت الحياة ممكنة على الأرض لتحول إلى البخار جميع العضويات الحية
الموجودة على الأرض. ولما أثر ذلك شيئاً في سير سائر النجوم والكواكب
وضياء الشعري يضاهي حالة جوها غريبة وعجيباً. فإن فلكنا الباريسي نولدمان قد أثبت
بأنها تير الكون بنور أقوى من نور الشمس خمسة وعشرين ضعفاً فيكون نور الشمس
بالنسبة إلى نور الشعري نسبة شمعة إلى مصباح زاهر أو بعبارة أخرى أخصر وأصح: يجب
وضع خمس وعشرين شمعة من شمعة لحصل على ضياء يشابه ضياء الشعري. وإن
ثبت تعبيراً علمياً فقال: إن كل مستر مربع من وجهها يبرز نوراً ما يوازي تقريباً ستة
دلائل من الشموع العشرية.

كل هذه الحقائق المقررة قد أثبتت بوساطة علمية حديثة في منتهى السذاجة لا محل
لذكرها هنا لأن العين لا تتطلب نظر بناية فخمة جديدة إذا كنت تراها مدعمة
بأخشابها والأجدر والأحسن أن تنتزع قبل أن ترمقها العين لتبدو بهجة منظرها.
ثم إن منظر طيف الشعري كشف لنا أيضاً أموراً ما كان ليكشفها لنا غيره وهي في منتهى
الغربة أيضاً. فإن المنظار المذكور أظهر لنا أن في الشمس أعلي معادتنا الأرضية وأما في

الشعري فإنه كشف لنا عن جو مركب كنه تقريباً من كنه عظيمة من الهدروجين وهو من أخف الغازات المعروفة. فيجب أن نستنتج من ذلك أن سائر العناصر الكيماوية التي هي أثقل قد تفككت وتحولت إلى هيدروجين بقوة الحرارة الشديدة حرارة الشعري. فإذا كان الأمر كذلك فحينئذ عند مرور الأعصار وكرور الأدهار لما يبرد الكوكب وينقل من حالة الشعري إلى حالة الشمس كما تحقق هذا الأمر عند ظهور العنساء يجب علينا أن نسلم أن الهدروجين في برودته يسير سيراً معاكساً أي إنه يتخثر رويداً رويداً فتكون منه سائر المعادن. ومن ثم فإن الكواكب تكشف لنا عن سر طالما كان غامضاً على أهل العصور الوسطى ألا وهو سر علم الصنعة الذي ترمي غايته إلى تحويل المعادن بعضها إلى بعض وعنه فوق كل علم بغداد سائماً.

أما لي تاريخية

الضريبة

روى اخي في خلاصة الأثر: إن العوارض مظنة سلطانية تؤخذ من البيوت في الشام في كل سنة ويقال أنها من محدثات المنك الظاهر بيبرس أشار إليها الصفوري بقوله معذراً:

يا من فضله والجود سارا ... مسير النيرين بلا معارض

وعدتك سيدي والوعد دين ... ولكن ما سلمت من العوارض

والأكرم بقوله أيضاً وقد أجاد:

لما الله أيام العوارض إنما ... هموم لرؤياها تشيب العوارض

يضيق لها صدري وإني لشاعر ... خليع وبقي ما عنده عوارض

القشلق

وروى الخبي أيضاً أن القشلق من عسكر السلطان مراد بن أحمد كانوا قد عينوا شاربة شاه عباس فدهمهم الشتاء دون الوصول إلى خطة العجم فأمرؤا أن يشتوا في دمشق وأطرافها من القرى وضيقوا على الناس أمر المعيشة وبالغوا في التعدي والتجاوز ونهب أموال الناس وكان قاضي القضاة بدمشق أحمد بن عوض العيتابي تولى هذا المنصب سنة ١٠٤١ هـ - قسى بقصعهم وكف شرهم فقال إبراهيم الأكرمي في ذلك:

انظر إلى القشلق في ذلة ... العكس من حالهم الحائل

كم رجل منهم بمسوره ... عني جواد صائل صاهل

تحل بالجندي غنمانه ... وقد أتى يسأل عن سائل

ووعفهم أبو بكر العربي بقصيدة بليغة مشيراً إلى عيهم ومعاونة القاضي في دفع أذاهم مطنعهما:

أواه لما حل في جلق ... من العنا في زمن القشلق

رامي البنى مد عني أمنها ... قوساً له قال القضا فوقي

حتى تنادي الناس بما هي ... باليتا من قبل لم نخلق

ومنها:

كانت دمشق الشام محسودة ... لكوها بالعين لم تطرق

آمنة من كل ما يخشى ... أمنة للخائف المشفق

ماتسة تزهو بسكافها ... ماندة للبائس المنفق

لا يعرف الدخل لها مدخلاً ... ولا إلى عيائها يرتقي

وهي على ما تم من نعمة ... تتيه بالحسن وبالرونق

ومنها في وصف قشلق:

في رقعة الشام غدت خيلهم ... وذلت الأرخاخ للبيدق

أواه من مخدمة نيراتها ... يا نار كيف اليوم لم تحرق

إلى أن قال:

يا ويح قوم دعموا أرضنا ... وأوقفونا في ردى موبق

وقد أغاروا وبنا أهدقوا ... يا غيره الله إلينا أسقي

أجنوا أهالي النور عن دورهم ... بالسيف والدبوس والبنق

واتخذوها سكناً دوفهم ... بالفرش من خزّ ومن استبرق

واستوعبوا أكثر أموالهم ... ظنناً بلا عهد ولا موثق

واقنع الناس بأعراضهم ... فإنها بالشنب لم ترشق

وأرخ ذلك بقوله:

لقد غزينا دون وعد بلا ... لأم فارخ سنة القشلق

وأشار إلى وجوب إسقاط اللام من التاريخ فتبقى سنة ١٠٤١ هـ ١٦٣١ م.

زحنة:

عيسى اسكندر المعلوف.

غرائب الغرب

كنية باريز

كلية باريز من أقدم كليات العالم في التاريخ إن لم تكن أول كلية أنشئت وقد كانت في القرون الوسطى بلا مرء أشهر كلية وأكثرها إيواءً لنظبة فكان علماء الوقت كما قال أحد الفضلاء ينظرون إليها بأنها صاحبة الحق في استخراج كنوز العنوم منكث إرثاً شرعياً صحيحاً وكانت أول كلية أنشئت في العالم كلية بابل أسمها نينوس مؤسس نينوي والمنسكة الآشورية الأولى وخلفتها كلية منفيس المصرية وخلفت كلية منفيس كلية آتينا وبعد هذه أنشئت كلية رومية وبعدها قامت كلية باريز واشتهرت كلية بولونيا في تعليم الحقوق كما سبقت كلية باريز غيرها في الآداب المقدسة والعالمية وكان في جوارها عشر مدارس تحيط بها كأنها أم القرى وتلك من أعماها مثل مدرسة الإنكليز ومدرسة الإيكوسيين والألمانين والنومبارديين واليونانيين ولطالما بعث المنوك إليها بأولادهم ليتخرجوا في المنطق ويعملوا رقة الجانب وحسن الأدب والعشرة.

ظلت هذه الكلية منذ القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر تربي معظم الرجال الذين يختفون إلى العلم فيها وفيهم الشعراء والعلماء والفلاسفة ومن مشاهير من تخرجوا فيها غنيوم أوكام ورايمون لول وتوما داكين وبنوا داناني وبونيفاس الثامن وبرونوتو لاتيني ودانت وتوما موروس وإيراسم وغيرهم وجميع طلابها على اختلاف أصعاعهم كانوا يرتاحون في حماها وكان مطمح أنظارهم حب الحقيقة وهي القاعدة الأصلية فيها وكل منهم يتمتع بحقوقه. ولقد جاء زمن كانت الحياة العقلية محصورة في جدران المدارس إلا أن كلية باريز أعظم منبعث لبث الدعوة إلى الأفكار الفرنسية وكانت وحدها تكفي لإنبارة العالم إلا قليلاً وكان رجال تلك الأزمان ينسبون العنوم إلى

مواطنها ويرجعون الأمور إلى مصادرها فيقولون أن رومية مقر البابوية وألمانيا مقر السلطة وباريز مهد العلم.

وكانت الأفكار الفرنسية — كما قال أحدهم في اللجنة الباريزية — هي أكبر معين في القرون الوسطى عصد إلى النهاية الصنيين في نشاطهم وهياً أسباب الحساسية الدينية وفتح لأمم المغرب ونشاطهم طرقاً جديدة في العمل ومن الأفكار الفرنسية نشأت بعد نزاع قديم فكرة الوطنية متجنية في صورة مؤثرة ذات بأس ومضاء بحيث خضعت السياسة لسنطافها ووضعت أسس الوحدة الوطنية. والأفكار الفرنسية هي التي ظهرت رياح الإصلاح والنهضة وقادت الأفكار القديمة إلى التجديد وأثارت العالم بقبس أنوارها. والأفكار الفرنسية هي التي حنت إلى العالم في عهد فولتير ومونتسكيو أفكار التسامح الديني والعدل الاجتماعي والحق والإنسانية. والفكر الفرنسي هو الذي سنّ المبادئ الخالدة في دساتير الأمم المتحدة بأسرها. فمن فرنسا نشأت حرية البطحك وحرية اليونان وحرية إيطاليا وحرية العثمانية. وفرنسا مهد الأدب تنشر أنواره فتناوله الأجانب وتقبله بقبول حسن وهي البلاد التي اشتهرت بعناتها وصناعها.

ومن كلية باريز اخترع أمبير اختراعاته التي لولاها لما اخترع التنغراف اللاصكي والسلكي والتلفون ولم تتم عجائب الكهربائية الصناعية. وفي كلية باريز أحدث باستور انقلابه العظيم في علم الحياة الذي جعله أحسن إلى الإنسانية في العالم أجمع. وفي كلية باريز حقق برتلو الطريقة الصناعية في المواد العضوية فنشأت منها الكيمياء الحديثة. وفي كلية باريز اخترع كوري وقربنته الراديوم واهتزت في أيديها ذراته. وفي معامل كلية باريز أوقد موانل للمرة الأولى التور الكهربائي كما اخترع غيره التصوير الشمسي

هذه شذرة صغيرة في وصف كلية باريز التي ما زالت الحكومة الفرنسية تنفق عليها النفقات الطائلة واخسون لا ينفكون عن إعطائها المنافع الكبيرة فقد وهبها كارنيجي الحسن الأمير كي كثيراً كما أن بعض الروسيين منحوها مالاً جزيلاً والفرنسيين يعطونها عن سعة. فحيا الله يوماً تقام لكل قطر من أقطار البلاد العربية كلية مثل هذه تدرس أبناءها عنوم البشر بنفثهم وتكون مجتعة بالوطنية الصحيحة كما تكونها كليات الممالك الصغرى في الغرب كالبلجيك وهولاندة والدانيسرك والسويد ونروج وسويسرا واخر وبولونيا وفنلندا والبرتغال.

حدائق باريز ومتاحفها

١٨

يطول بنا نفس الكلام إذا أردنا الإفاضة في كل فرع من فروع العمران بباريز وكلها مما يحتاج إلى صفحات كبيرة وربما ملّ القاريء قبل أن يمل الكاتب. ولقد عانيت مدة مقامي في هذه العاصمة أن لا أضيع ساعة من وقتي إلا في البحث عن جمعية أو إنسان وزيادة معهد فيه نموذج من ارتقاء العقول ووفرة العنم وحذق الأيدي وبسطة العيش وفصل الرفاهية ومما جعلته لأوقات الفراغ غشيان الحدائق والمتاحف ودور التمثيل والسناج.

في باريز حدائق كثيرة عامة ومنها الصغير الخاص بحمي أو شارع صغير ويسمونها سكارار وهي كننة إنكليزية معناها ساحة مربعة أو حديقة يحيط بها حاجز من قضبان حديد وتكون في ميدان عام وعددها ٣٦ حديقة تصني كل حاضرة من حواضر البلاد العثمانية أن يكون لها من نوعها واحدة فقط بانتظامها وحسن تعهدها. أما الحدائق الكبرى فعدها

تسع تصرف في كل واحدة الساعات وأنت تسرح ظرفك فيما خصتها به يد الصانع وأيدي البشر من مجالي الظرف والجمال.

زرت منها حديقة الحيوانات وحديقة النباتات وحديقة كنوبي وحديقة لو كسبورغ وعجبت لمن يزور هذه الحدائق مرات لم لا يكون عارفاً بالنبات والحيوان وتاريخ مشاهير فرنسا أحسن معرفة فمثل هذه الحدائق التي يتزده فيها المتزهون هي في الحقيقة مدارس عملية يدرس فيها المتزه كبيراً كان أو صغيراً ما ينبغي له من هذه العنوم درساً عملياً لا يحتاج فيه إلا إلى انتباه فكر قليل حتى إذا أسعده الحظ ونظر في المدرسة أو خارجها في كتب هذه العنوم يصبح وهو مطبق العلم على العمل.

ولقد رأيت في حديقتي الحيوان والنبات أسماء كنت أقرأها ولا أعرف أعيانها ففما وقع النظر عليها تبينت فضل عرضها وأن العلم النظري إذا لم يشفعه علم عملي يقي كالسيف في غمده أو البندقية في معننها أو الكهرباء قبل توليدها. وليس في البلاد العثمانية أو المصرية ما يشبه هذه الحدائق الله إلا أن تكون حديقة الجزيرة والجزيرة والقناطر الخيرية في مصر وحديقة الأمة وغيرها في الأستانة ولكن أين الثريا من يد المتناول ما ينظمه الباريزيون لأنفسهم وينظمه الإنكليز أو الطليان والنمسيون لنا. وما حك جسمك مثل ظفرك.

وانك لترى في بعض الحدائق العامة تماثيل مشاهير رجال فرنسا في السياسة والعلم مجسمة من رخام مجزء أو حديد مصنع كأن ساحات باريز وشوارعها العظمية لم تستوعب وحدها كبار رجالهم حتى هرعوا إلى الحدائق يضعون فيها التماثيل والنصب لمن أحسنوا الالامة أو سادوها زمناً وأصبح لهم في تاريخها ذكر يردد. ففي ساحات باريز وشوارعها

٦٨ مشهداً لمشاهير عنائهم ورجال سياستهم ومنهم أوغست كونت والفرد دي موسه وشاركو وكورنيل ودانتون وغامبتاوكي دي موباسان وجول سيون ولافيت وواشنطن ولافوازيه وباستور وفكتور هوغو وغيرهم وفيها ٦٨ تمثالاً اثنان منها لاسكندر دوماس الابن والأب. وواحد لبالزاك وبوفون وبرانجيه وشارلمان وكنود برنار وكوندورسه ودانت وديدرو وغاريبالدي وجورج ساند وجان جاك روسو وجان دارك ولامارتين ومارات وموليير وباسكال وشاكسبر وفولتير وتمثال الحرية والقانون والجمهورية هذا داخل العاصمة أما خارجها فلها من غابتي فنسين وبولونيا أعظم فسحة ونزهة وغابة فنسين في شرقي باريز على بضعة كيلومترات من نقطة دائرتها ومساحتها ٩٢٧ هكتاراً وفيها من أنواع الراحة وتنوع المناظر المفيدة ما هو العجب العجائب وأعجب منها غابة بولونيا في غربي باريز ومساحتها ٨٧٣ هكتاراً زرقاً ثلاث مرات وإن كانت في الشتاء ليست مثلها في الصيف غنى ألها ما خلت من الأنيس والجليس وكان أحد تلك الأيام يوم عيد رأس السنة والسناء مصحة والشمس طالعة مريضة صحيحة والعيون المراض الصحاح خرجت من كناسها تستنشق الهواء النقي. وهناك منظر من بحيرات بولونيا وطرقها لا أدري كيف يصوره الشاعر إذا كان الوقت ربيعاً أو صيفاً أو خريفاً ولو كنت شاعراً لحبرت في وصفه القصيدة وإن زرقاً في الفصل الميت كما يقول الفرنسي.

أما المتاحف الباريزية فهي أيضاً قصور نزهة وحدائق صفاء وعددها ٣١ متحفاً يحتوي كل منها على أقصى ما يتصوره العقل من ارتقاء البشر في الصناعات والفنون على اختلاف الأعصار زرت بعضها وقضيت أوقاتاً طويلاً في متحف النوفر العظيم بالقرب من

فهر السين ومتحف فرسال عني ثلاثة أرباع الساعة من باريز. أما متحف النوفر فهو من أجل قصور العالم وأوسعها عرف سنة ١٢٠٤ عني عهد فييب أوغسطس وما زالت أيدي الملوك تتعاوره بالإصلاح أو التدمير حتى إذا كان عهد فرنس الأول أصبح النوفر متحفاً يقسم اليوم إلى سبعة متاحف في متحف بحسب أصول آثارها وزمنها وطبيعتها وهي متحف التصوير ومتحف الرسوم ومتحف النقش ومتحف النحت القديم ومتحف النحت في القرون الوسطى وعني عهد النهضة ومتحف النحت الحديث ومتحف العاديات الآسيوية ومتحف العاديات المصرية ومتحف العاديات الإفريقية ومتحف العاديات النصرانية ومتحف الفخار والأواني الخزفية القديمة ومتحف القنز والحلي والرخام القديم ومتحف عاديات القرون الوسطى والنهضة والقرون الحديثة ومتحف تير ومتحف البحرية ومتحف الشرق الأقصى. وكل متحف تصرف فيه الساعات الطويلة ولا تستوفي النظر فتأخذك الدهشة من رؤية المكان ورؤية المكين وتقضي بالعجب من كل ما يقع عليه بصرك إذ تمثل لك عظمة الإنسان وتفتنه فيما تصنعه يده وعينه وذوقه أما متحف فرسال فهو في مدينة فرسال وكانت في القرن الحادي عشر لليلاد قرية فأصبحت بعناية لويز الثالث عشر مدينة صغرى لأنه أقام فيها قصراً للراحة أثناء الصيد وأراد لويز الرابع عشر أن يجعل فرسال مركز حكومة فرنسا فأنشأ فيها أبنية ومصانع عظيمة وكذلك فعل لويز الخامس عشر حتى أصبح عدد سكانها ثمانين ألفاً على عهد الثورة. وهكذا إذا أراد الملوك أن يعبروا بنداً أحيوه وإذا شاؤوا أن يخربوه أماتوه. واشتغل في إقامة قصر فرسال الذي جعل المتحف فيه اليوم ثلاثون ألف رجل

وسنة آلاف دابة في اليوم مدة سنين طويلة وقد فتحت أبواب المتحف سنة ١٨٣٧ وفيه اليوم ٥٦٠٠ أثر تاريخي.

أما مجموعة الصور البديعة التي فيه فعددها ٢٤٠٠ صورة ليس لها نظير في العالم ومن يمعن النظر فيها كثيراً يخرج من المتحف وقد درس تاريخ فرنسا ووقائعها الحربية بالعمل والنظر.

ومن جملة ما حواه أصلحة بيوت الشرف التي اشترك فرد أو أفراد منها في الحروب الصليبية. ومنها أبواب مستشفى فرسان رودس الذي أهدها السلطان محمود العثماني سنة ١٨٣٦ إلى لويز فييب صاحب فرنسا. وفيه صور كثير من مشاهير الشرق كأنك تراهم عياناً وفيه صورة تمثل القائد كمبر الفرنسي وسليمان الحلبي يقتله في حديقته في القاهرة زمن الاحتلال الفرنسي في مصر.

أطنت الرواية في كل هذا وأنعمت النظر في النفقات الطائفة التي أنفقت على هذه القصور المزخرفة والمصانع العظيمة فأعطيت بعدها الحق لمن قاموا بالثورات الفرنسية يريدون إنزال المنوك عن عروشهم وفصم عرى السطة الفردية لتقل إلى أيدي الأمة. نعم إن أقل نظرة إلى هذه القصور يستغرب معها المرء كيف لم تحدث تلك الثورات قبل حدوثها بزمان طويل ولكن الحوادث كالحبال لا تند إلا بعد إتمام مدة الحمل أو كالشر لا ينضج قبل إبانته.

ولم أتمكن يوم زيارتي لفرسال من رؤية كل حدائقها ومرافقها لتزول الثلج ولكني على الجملة أخذت منها صورة إجمالية كافية. شأني في كل ما زرته من المعاهد ورأيت من

المشاهد فلم يتيسر لي أن ألقى عليه سوى نظرة واحدة لضيق الوقت وكثرة ما يجب أن يدرس من آثار هذه الحاضرة الغربية الغربية.

وبعد كل هذا صرت أرى الاشتراكيين على حق فيما يطالبون به الاجتماعات الحديثة في الغرب وهم يرون مئات الفدادين من الأرض تجعل حدائق قد لا يختلف إليها إلا أفراد في حين يهتلك مئات الألوف من الخاويج والفقراء ولا من يرحم ضعفهم المادي والصحي أو يرثي لبكائهم وتسيل على النظر هذه التحف والعاديات التي لا تقدر بشئ وحكومة الجمهورية تفترض مئات الملايين من الفرنكات لسد العجز في ميزانيتها. وهكذا نظام المجتمع الغربي ولعل عقول أئمة المفكرة تحرر في الأجيال المقبلة الفقير من فقره أو تقوى على الأقل على تعديل هذا النظام الجائر الذي يسبب من كثيرين السيد والبند ليعمر به قصر البلد وينعب في حدائقه وساحاته الوالد والوالدة والولد.

مكاتب باريز ومكتباتها

لو لم يكن في باريز إلا مكتبة الأمة التي حوت في قصرها الفخيم زهاء ثلاثة ملايين كتاب مطبوع ومئة ألف كتاب مخطوط ومنيونين ونصف صورة مخومة وألوفاً من الأيقونات والأنواط القديمة وغير ذلك من التحف والآثار ومجاميع الصحف والمجلات لكفاها جالباً للسائحين ولافتاً لأنظار أهل العالمين من العالمين.

مكتبة أسست منذ نحو ستة قرون ومنوك فرنسا وعناؤها وأشرفها يتبارون في أن يجعلوها في كل فرع من فروع العلم واللغات وصنوف المخطوطات والمطبوعات حتى إذا جاء

القرن العشرون أصبحت مكتبة الأمة أكبر مكاتب العالم وأهمها بندرة كتبها ومخطوطاتها ففيها من نواذر المخطوطات والمطبوعات العربية ألوف.

اختلفت إليها غير ما مرة ولم أتمكن من مطالعة كل ما أريد لضيق الوقت وضخامة الفهارس وكثرة المؤلفين والناقلين في قاعات المطالعة. وبنغني أن الكتب التي أهتمت إلى مكتبة الأمة في العهد الأخير لم ييسر إدخالها في قوائم الكتب على كثرة موظفي المكتبة وكادت مطبعة الأمة الأميرية تعجز عن طبع فهارس هذه الخزائن ولا غرو فان ما رأيته منها مطبوعاً إلى عهد ليس بعيد وحده مكتبة برأسه ويقضي فيه المرء الساعات ولا يستطيع أن يستوفي النظر الإجمالي.

ولو صرف طالب العلم عمره كله يبحث في مخطوطات مكتبة الأمة ويستعين بمطبوعاتها لما تيسر له أن يأتي إلا على قسم ضئيل جداً مما حوته في بطنها من معارف البشر ولا نعد المكتبة الخديوية في مصر ومكاتب الأستاذة التي تتجاوز الأربعين مكتبة ومكتبة المجلس البندي في الإسكندرية ومكاتب دمشق وبيروت وحلب وبغداد والمدينة ومكة وغيرها من بلاد الشرق الأدنى إذا جمعت كلها في صعيد واحد وجعلت لها فهارس وقوائم منظمة إلا جزءاً صغيراً من ذاك الجسم الكبير. وعلى تلك النسبة قس المطالعين والمراجعين في مكتبة الأمة بالنسبة لأمثالهم في البلاد العثمانية والمصرية فتراهم عند الساعة الرابعة بعد الظهر يخرجون رجالاً ونساءً شيوخاً وعجائز شباناً وشابات كالقطيع الكبير لا يقل عددهم عن خمسمائة وربما الألف أحياناً وتجد فيهم الغرباء من أمم أوروبا وآسيا وأميركا وإفريقية ممن تجمع بينهم كنية العلم الجامعة وكلهم يتنافسون في البحث والدرس ويستخرجون من دكايز تلك الكنوز ما يصوغونه عقوداً ثمينة وتعاويز محللة تقي البشر شر الجهل والخرافة

ولعله يحظر ببال بعضهم أن هذه المكتبة هي كل ما في فرنسا من خزائن كتب صرف الفرنسيين فيها قوامهم وجمعوا لها من أقطر الأرض كل غال ونفيس عني عادة الإفرنج في التغالي بفخامة مصانعهم وضم شتيت متفرقهم وحرصهم عني الاجتماع للانتفاع ولكن في باريز وحدها من المكاتب العامة ما لو جمع أيضاً لكان منه مكتبة كسكنة الأمة بكثرة أسفارها إلا أن هذه تفوقها بالوادر من المخطوطات.

ولباريز عشر مكاتب أخرى في كل واحدة منها عشرات الألوف من المخطوطات والمطبوعات دع عنك خزائن كتب الجمعيات والمدارس والكليات والجامع فإن لكل واحدة منها ما يقتضي لسطالع من أسفار المراجعة وغيرها. أما خزائن كتب الأفراد فهذه لا يحيط بها إلا علام الغيوب أو من يدعي أنه يعرف ما حوت باريز من علم وأدب وذهب ونشب.

ويقول العارفون أن قواعد بلاد الإنكيز السكسونيين كألانيا وإنكترا والولايات المتحدة تحسن استخدام أسفارها أكثر من الجنس التوتوني اللاتيني كالفرنسيين والطيان والاسبان وغيرهم إذ ثبت أن تلك الأمم العظى الراقية أكثر إحساناً للانتفاع من قواها الطبيعية والصناعية عني أمنوب حديث لم يحظر ببال الفرنسيين الذين جروا في أوضاعهم وترتيب مصانعهم وتنظيم شؤونهم عني تقاليد لهم قديمة وإن عرف عنهم أنهم أسبق الأمم إلى الجديد ولكن تجديدهم في أمور دون أخرى.

والانتفاع من الكتب أيضاً لم يخرج عن هذا النظام حتى قالوا أن نفائس المخطوطات والمطبوعات الموجودة في مكتبة الأمة في عاصمة الفرنسيين لو نقلت إلى ليسيك أو مونيخ أو برلين أو فينا أو أكسفورد أو مانشستر أو لندرا أو نيويورك أو شيكاغو لاتفع

بها وتيسر سبيل الوصول إليها لأنها تكون هناك مفهومة مبوبة على طريقة فيها روح القرون الوسطى وقد جعلت هنا على أسلوب قريب المأخذ سهل التناول حال من القيود التي تقيد المطالع والمراجع. فإن كانت فرنسا في مقدمة شعوب الأرض من وجوه كثيرة ولا سيما في الأمور الذوقية وبدائع الصناعات والإصلاحات الدستورية والإنسانية فقد فاقها غيرها من الممالك المجاورة من حيث الفنون والاقتصاد والاجتماع فعرفوا كيف يطبقون أنفسهم على الذوق العصري.

مثال ذلك صناعة الوراقة أو بيع الكتب فإننا نجد ألمانيا أرقى من فرنسا فيها مع كثرة تفنن الفرنسي فيما يدل على سلامة الذوق حتى أن ليس في ألمانيا تباع وحدها من الكتب قدر ما تصدر فرنسا كلها ومن الغريب أن الكتبة الألمان في نفس باريز تجدهم أمهر في تصريف كتبهم فيبيعون كمية أوفر من كتبة الباريزيين.

جاء في كتاب ألمانيا الحديثة أن ألمانيا أعظم البلاد إصداراً للكتب فقد كانت أوائل القرن الماضي لا تخرج في السنة سوى ٣٩٠٠ كتاب فأصدرت سنة ١٩٠٥ ٢٨٨٨٦ كتاباً في حين أن فرنسا التي في الدرجة الثانية بكتبها لم تصدر سنة ١٩٠٤ سوى ١٢١٣٩ كتاباً فإذا قدر أنه يطبع من كل كتاب في ألمانيا ألف نسخة فيصيب كل شخص فيها على أقل تعديل مجلد واحد فصناعة الكتب في ألمانيا رابحة جداً. وقد كان عدد ائمال التي تتعاطى تجارتها سنة ١٩٠٥ ٧١٥٢ محلاً تصدر إلى الخارج فقط ما قيمته ٢٩٠ مليون مارك.

زرت في جملة الكتبة الذين زرهم أو ابعت منهم بعض الكتب مكتبة هاشيت المشهورة في جادة سان جرمان وهي ثلاثة طوابق وفيها نحو ألف وخمسمائة موظف ومستخدم وتطبع فيها بضع جرائد ومجلات كما تطبع الكتب المدرسية والأدبية والتقويم السنوية

المشهورة في العالم وهي مؤسسة منذ نحو ثلاثة أرباع قرن ويعد هاشيت من أعظم كتيبة العالم إن لم يكن أعظمهم ومع هذا يقول العارفون أن مكتبته على حالتها الحاضرة لو كانت لجماعة من الألمان أو الأميركيين لأدهشوا العالم بنظامهم وأرباحهم. فكان دم الفرنسي الذي على زمناً قد برد اليوم وأصبح الدم الجديد غيره الآن يغلي فيدمش بحارته. ومن مكبات باريز المشهورة مكتبة فلاماريون ومكتبته فروع كثيرة في مدينة باريز وبلاد فرنسا وهذه المكتبة فيما رأيت أقرب إلى التجديد منها إلى الجود على القديم.

مجامع باريز العننية

٢٠

على الشاطيء الأيسر من نهر السين مقابل قصر اللوفر الفخيم قام قصر عظيم عمر في النصف الثاني من القرن السابع عشر بحال أوصى به السياسي مازارين الذي جمع بطمعه وجشعه ثروة عن خمسين مليون فرنك على عادة عظماء القرون الوسطى. وأراد أن تنفق بعده في الخيرات وحسن الأثر ومن جملة خيراته هذا القصر الذي أوصى له بملكي فرنك فضة وخمسة وأربعين ألف ليرة دخلاً سنوياً ليكون منه مدرسة عالية يتعلم فيها ستون طالباً من أبناء الولايات الأربع التي أضفت إلى فرنسا بموجب معاهدة البيرنيه ورومينون.

وهذا القصر هو الذي نقل إليه مجمع فرنسا العلمي سنة ١٨٠٦ ذاك المجمع الذي أسس سنة ١٧٩٥ فكان مفخراً من مفاخر الفرنسيين وحق لهم أن يفاخروا به. وهو مجلس أو ديوان مؤلف من خمسة مجامع فالأول المجمع العلمي الفرنسي المعروف بالأكاديمي أسسه

ريشنيو سنة ١٦٣٥ وهو يشغل خاصة بتأليف معجم اللغة الفرنسية وإدخال المفردات الجديدة ونبد القديمة أو إصلاحها وأعضاؤه أربعون رجلاً ويقال لهم المخندون على سبيل الدعابة لأنهم إذا خلا موضع واحد بالموت ينتخب سائر الأعضاء في الحال من يخلفه والجمع الثاني مجمع الصناعات النفيسة أسسه مازارين سنة ١٦٤٨ باسم مجمع التصوير والنقش والجمع الثالث مجمع الخطوط والآداب أنشأه الوزير كولبر سنة ١٦٦٤ ومجمع العلوم أسسه كولبر أيضاً سنة ١٦٦٦ ومجمع العلوم الأخلاقية والسياسية أنشئ سنة ١٨٣٢ وجميع هذه الجامعات ينتخب أعضاؤها بعضهم بعضاً مدى العمر وينظرون في العلوم الأنف بيافها ويعطون جوائز للمحسنين من المؤلفين والعاملين وبعضها لا يستهان به. وفي باريس مجامع علمية كثيرة غير هذه منها مجمع باستور العلمي مكتشف الميكروب ومجمع الكيمياء ومجمع فتيان العيان ومجمع الزراعة ومجمع البحار ومجمع العيون ومجمع الصم البكم ولكل منها أنظمة وقوانين وأعمال يطول شرحها وأكثفي فقط بوصف جلسة عامة حضرها من جنسات مجمع العلوم الأخلاقية والسياسية في اليوم الرابع من كانون الأول سنة ١٩٠٩ عقد هذا المجمع جلسته السنوية تحت قبة المجمع وهي القبة التي تجمع فيها الجامعات الخمسة المعددة فيما تقدم اجتماعها السنوي وقدر المجمع بأربعمائة نسمة رجال ونساء. جلسوا على مقاعد من المخمل على ترتيب بديع بحيث يسع كل واحد منهم ويرى وكان أكثر أعضاء هذا المجمع بلباسهم الرسمي فجنس عنى كرسي الرئاسة المورني ستورم وتلا كما هي عادة هذا المجمع منذ القديم أو منذ إنشائه قائمة بأعمال المجمع منذ اثني عشر شهراً وصفق لمن نالوا جوائز على كتب ألفوها وأعمال قاموا بها خدمة الإنسانية وتعليم البائسات وإطعام الجائعات واليتامي والعبي

وبين من نالوا الجوائز أربع عقائل عدا من أثى الرئيس على أياديهم البيضاء كالأم
أرنستين التي أنشأت معبلاً ومنجاً في مدينة روان والعقيلة بكون التي أنشأت في باريز
منجاً سمته معمل الجهاز والأنسة دي رشمون التي أنشأت في مدينة كرنيل منذ أربع
وعشرين سنة منجاً للبنات تأوي إليه أربعائة ابنة من بنات العننة وأنفقت عليه ثروتها.
ومن المعاهد التي أخذ هذا المجمع النظر فيه معهد كارنو وهو الذي منحه العقيلة كارنو
امراًة أحد رؤساء الجمهورية رأس مال يأتي بشنانية عشر ألف فرنك دخلاً سنوياً وقضت
بأن تقسم إلى ٩٠ إعانة كل واحدة بمائتي فرنك توزع كل سنة يوم ٢٤ حزيران وهو
يوم مقتل كارنو على تسعين امرأة من نساء العننة ممن هن أولاد. ومن جملة الجوائز التي
منحها المجمع للتأليفين جائزة الإجابة لمن ألف كتاب إفريقية للأوروبيين وكتاب أوروبا
والملكة العثمانية.

ثم قرأ المسيو دي نوفيل أمين سر المجمع الجديد ترجمة حياة صديقه ومنه في هذه الوظيفة
جورج بيكو فآثر في السامعين وأبكاهم وتفنن ما شاء وشاء البيان في وصف حسنات
المتوفى واقتداره. وكانت الخطب يتلوها أولئك الشيوخ في الورق بنغمة تأخذ بمجامع
الجنوب ويضطرب لها العالمون العامنون طربهم بنغمات الأوتار وتغريد الأطياف في الأسحار.
وهكذا انصرف القوم ونصفهم من النساء يرددون محامد أعضاء المجمع أما أنا فتمتلت لي
أرواح أولئك العنناء العامنين الذين سنوا لمعاصرينا أخلافهم سنن الارتقاء وخدمة العلم
والحق والفضيلة والآداب والفنون وحدثني النفس ببلادنا الشرقية وقلت هل يكتب لها
في المستقبل تأليف مثل هذه المجمع فتعمل فرادى ومجتمعين كالعربيين أو نظل كما نحن لا

نعمل فرادى ولا مجتمعين ونكتفي بالتفاخر بأجدادنا نجعله عدتنا في شدتنا ومثالنا في
فطنتنا ونحن عن اقتصاص آثارهم غافنون.

كنائس باريز ومعابدها

٢١

من المعاهد التي يقضى على من يزور باريز أن يختلف إليها ولو مرة بيعها وكنائسها فإنها
من الأماكن التي يقرأ فيها نموذجاً من النودجات البناء في القرون الوسطى ويطنح فيها
على فلسفة الفرنسيين الروحية خصوصاً والمأثور عنهم في الشرق أنهم أمة لا تقيم لغير
العقل وزناً تجردت من العواطف الدينية حتى لم يبق فيها سوى العجائز من النساء يختلفن
إلى المعابد للإنبابة إلى الله وتقديس يسوع وأمه عليهما السلام.

بيد أن من تعمق في البحث عن حال الفرنسيين الروحية يتجلى له أن جمهوراً عظيماً لم
يرح متشبعاً بدينه متشبعاً بصحة يقينه ولا سيما في القرى والبندان الصغرى فأغلب
الخاصة والطبقة العليا عندهم نزعوا كل نخلة حتى لم يعودوا يعرفون غير المادة ديناً
وأغلب الطبقة الوسطى يغيب عنها الدين أما العام في المدن فكالسائنة لا تعرف غير
الأكل والشرب والنهو والنذائد وأكثر أهل طبقتهم في القرى متعصبون لدينهم والسواد
الأعظم من النساء متدينات. وتساوى متدينهم والمنحل من كل دين منهم أو الخاصة
والعامّة بالتظاهر في مراعاة الشعائر الدينية ولا تحتل هذه القاعدة قليلاً إلا في المدن
والخواضر ولا أثر لتعليم الديني في المدارس الأميرية وهو على أشده في مدارس الرهبانات
وغيرها من المدارس الخاصة على أن نزعة التعصب التي عرفت بها فرنسا منذ صبات عن
الوثنية لتتحل النصرانية في القرن الثالث للمسيح ما برحت لها في نفوس أبنائها حتى في

هذا القرن العشرين آثار راسخة وإن عبثت حكومتهم بقانون الحرية الشخصية غير ما مرة ودمرت بيوت الرهبان والنسك وجردت الكنائس والبيع والمدارس الأكاديمية من كل ما يدخل في حوزتها.

يحتفل الفرنسيون يوم ١٤ تموز بسيد الجمهورية احتفالاً يقدرونه ويمجدونه وفي ذاك اليوم تشهد كل أرض فيها بضعة منهم أو رفع لهم فيها علم نموذجاً من وطنيتهم وكيف يرى جمهورهم بالجمهورية حياته ولكن احتفال هذه الأمة بأعيادها الدينية لا يقل عن احتفالها ذاك اليوم وأعيادها كثيرة هي صورة من صورتها في القرون الوسطى بل في القرون الحديثة قبل أن تنادي فرنسا بتأليه العقل وتعلن الحكومة عناً نزعها ريقه الدين.

نعم إن زائر كنائس باريز تتجنى له فلسفة القوم النفسية. ومما زرته من كنائس باريز كنيسة نوتردام والمادلين وعدد الكنائس الباريزية سبعون كنيسة أسقفية للكاثوليك ما عدا بيع الروم والبروتستانت ومعابد اليهود الأربعة وما عدا المصليات والبيع الصغرى ونوتردام هي من أعظم الكنائس وهي أجمل إنموذجات البنايات القديمة تحية بمكانتها بعد كنيسة مدن شارتر ورېمس وأمين وبورج وتفوقها بآثارها التاريخية وكفى بأنها أنشئت في أوائل النصف الثاني من القرن الثاني عشر ولم تزل تتعاورها الأيدي بالنقش والتزيين والترخيم والتعريق حتى يوم الناس هذا وفيها من بدائع ما صنعت الأيدي وتفتت فيه العقول ما يدهش ويههر.

زرناها قبيل صلاة المساء مع صديقي عثمان بك ووقفنا نسمع لوعظ الواعظ على جمهور المصلين وأكثرهم من النساء. يعظهن واصفاً لهن غرور الحياة الدنيا بالقياس مع الآخرة ومنهن من تغر ورق عيناها بالدموع أو تجهش بالبكاء خصوصاً عندما يذم بلسان بليغ

غرور أهل باريز. فهو داخل الكنيسة يقوم بالواجب ليدعو الناس إلى الزهادة ويجب إليهم العبادة ووراء سور الكنيسة تجري كل ساعة شؤون وأعمال دينوية هائلة كلها ما كانت تقوم لو عمل الناس بمثل هذه المواعظ وآثروا الباقية على الفانية. إن ما رأيته من انتظام البيع الباريزية وتفنى البائنين في إبداعها وتفانيهم في توفير قسطها من الجمال دلني بنسان حاله على أن مدينة القرون الوسطى قامت باسم الدين ولذلك جاءت المعابد أجل مصانع تلك القرون وكان أكثرها إلى الزوال لو لم تتدارك في القرون الحديثة ببسهم من إنارة العقول بالفلسفة والعلم المادي أما مدينة هذا العصر فلا أدلّ عليها إلا بما ينفع الناس في دنياهم كالسكن الحديدية والبوارج والبواخر والمرافئ والمعامل والشكن والمستشفيات والمدارس والكنيات ودور البائسين والحقول الأعمودجية والمتاحف وحمير الوحوش والمكتب ودور التسلل. فهل يأتي على البشر عصر يا ترى يكون فيه ما ينم عن مدينتهم غير ما ذكرنا قديماً في الدين واليوم في الدنيا ويخف تكاليفهم على مظاهر هذا العالم وينسون بتاتاً تعظيم ما خلفته عصور التدين من المصانع والعبادات التي انتقلت إلى أكثرهم بالعادة أو يمزجون القديم بالحديث فيكون شأنهم غير شأنهم الآن في تصور ماضيهم وحاضرهم. هذه أسئلة ليس غير الزمان كفيلاً بالإجابة عنها والله أعلم بمصير عباده.

قصور باريز وسراياتها

٢٢

من القصور العامة وأملاك الحكومة في هذه الحاضرة: مصرف فرنسا وقصر الإليزه حيث يقيم رئيس الجمهورية وقصر الأنفاليد والتوينيري وقصر العدلية وقصر ساحة المريخ

وقصر التروكادير والقصر الملكي وفيه دائرة شورى الدولة ومحكمة التجارة والبانتيون مدفن العظماء وقصر مجلس النواب وقصر مجلس الشيوخ وقصر المجلس البندي. وتكنم هنا عني القصور الثلاثة الأخيرة فقد كتبت لي زيارة مجلس نواب الأمة الفرنسية ومجلس أعيانها خلال انعقاد المجلس فلم أسر بمشهد أجهل ولا أفخم وقتنا نثل لي معنى النيابة عن الأمة إلا ذلك اليوم. ومجلسا النواب والأعيان هما مفخر من مفاخر هذه الأمة وغوذج تقدمها ودليل أخلاقها السياسية ففي مجلس الأمة الحركة والمضاء وفي مجلس الشيوخ التؤدة والروية فالأول يقيم في قصر البوربون والثاني في قصر اللوكسبورغ وكلا القصرين من أجهل قصور الحكومة في هذه العاصمة العظيمة وعدد النواب خمسمائة تغلب عليهم همّة الشباب وعدد الأعيان ثلثمائة تقرأ في وجوههم المفضنة وشعورهم البيضاء سعة العقل والتجارب الكثيرة.

وما أنس ولا أنس يوم كانت المناقشة في مجلس النواب في وضع ضريبة على العنلة وقد تدققت أقوال بلابل المجلس على المنبر وما فيهم إلا الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي والسياسي والإداري.

وإن ما تلي في تلك الجلسة فقط من الخطب وجرى الحوار فيه بين الأعضاء لو جمع في كتاب يرأسه لجاء منه أحسن كتاب اجتماعي اقتصادي عن فرنسا ومن أراد أن يعرف ما هو البيان الحقيقي والعلم الذي تشربته أجزاء النفس فليزر مجلس النواب الفرنسي في فصل اجتماعه يشهد ارتقاء الغرب ويدرك سر الشورى.

أما المجلس البندي فهو معيار العبران ويبيده إسعاد باريز وإشقاؤها. يزار كما تزار أكثر المعاهد الكبرى في باريز بطنب من الزائر يقدمه إلى أمين سر المعهد فيرسل هذا إليه

ورقة يعين له فيها الميعاد الذي يأتي فيها..

يدخل الزائر هذا القصر المدهش فيتجسم في نظره الذوق الفرنسي وعظمة هذه الأمة لكثرة ما يقع عليه نظره من الردهات والقاعات والغرف وكلها مزدان بنقوش وصور ورسوم من أجل ما خطته أنامل النقاشين والمصورين وتدل كلها على الذوق والمعاينة النطقية والإشارات الحسنة.

فن رسم يمثل الغناء والعشرة وآخر يمثل الزهور والشار وغيره يصور أغاني شواطئ السين وآخر يمثل التجارة والصناعة فالأشهر الجمهورية ومناظر كثيرة لأجل قصور باريز ومعاهدها وأصقاعها وهناك صور رسمت على الحيطان والسقوف في القاعات التي تستقبل بها مدينة باريز في العادة من يزورها من ملوك الأرض وأمرائها ومنها ما يمثل أفراح الحياة وآخر يمثل العمل ومغيب الشمس والرقاد والحلم وغيرها يريكم الطبيعة المهمة المربية فالرياضيات الطبيعية فالرياضيات العقلية وآخر يمثل الطبيعة والكيمياء والفلسفة والنجوم وفيها ما يمثل المساء في باريز والخيال والولادة فيها والجهد والنهضة والشعر والفلسفة والتاريخ والعلم والفنون والسلام واليقظة وذكرى عيد وطني وعيد الخلاء في ضاحية باريز. وبعضها يمثل أبولون وعيرانس الشعر والتصوير والأدب والموسيقى والنقش والهندسة ومنها رمز القصائد الغنائية والأنعام والكدر والتأمل ومن التماثيل ما يرسم التمثيل بالإيماء والقصص الهزلية والموسيقى والرقص والألعاب ومنها ما يصور الحصاد وقطف العنب والغناء والصيد وتعاطي الشراب. ومنها الموسيقى على اختلاف العصور والطوب والعطور ومدينة باريز تدعو العالم إلى أفراحها والزهور والرقص في كل عصر من أعصار التاريخ وصور تمثل أهم أقاليم فرنسا مثل الفلاندر

وبيكارديا والجزائر وليون ولانكلوك وغاسكونيا والبروفانس وكوسين وبري وشامبانيا وبرتانيا وبورغونيا وأوفرن واللورين ونورمانديا وكونتية نيس. ومن صورها ما يمثل الصيف ومنها الشتاء ومنها ما يمثل آسيا وأوروبا وأميركا وإفريقية ومنها ما يصور تأليه العنوم وهو رمز لعنم الأحداث الجوية والكهربائية وتعليم العنم وتحجيد العنم وأربع أيقونات تمثل عنم الطبيعة والنبات في شخص أراغو وأمير وكوفيه ولافوازيه. ومنها رمز إلى ساعات الليل والنهار ومشاهد الأفراح والأعياد وفي ردهة الآداب صور ترسم لك عرائس الشعر والإلهام والتفكير وتاريخ الكتابة وأعظم الأعمال الأدبية وأربع أيقونات لأربعة أدباء وهم مولير وديكارت وفيكتور هوغو وميشله ثم صور الفلسفة والشعر والفصاحة والتاريخ وهناك رمز بديع يشير إلى أن التاريخ يجمع دروس الماضي والفلسفة تحرر الأفكار من قيودها وعلى مقربة من ذلك رسمان اثنان نانسان وهما يمثلان الأدب وفي سقف ردهة الفنون والنقش والموسيقى والهندسة والرسم وغير ذلك من رسوم الوقائع الكبرى التاريخية والصور والتناثيل التي تشير كل واحدة منها إلى معنى من المعاني وفائدة من الفوائد ولكنها من حفر أو رسم أو نقش أعظم رجال هذا الشأن في العالم ولا سيما من أهل فرنسا جعلت هناك نموذجاً مما خصوا به من المزايا وسعة العلم وبعد النظر وحسن الذوق.

وعلى الجبهة فإن الشرقي الذي يزور قصر المجلس البندي في باريز تصغر بلاده في عينه ويكاد يئأس من ارتقائها وهضمة أبنائها.

أما أعمال هذا المجلس الذي تبلغ ميزانيته مئات الملايين فلا أقول فيها إلا أنها عظيمة جداً ويكفي أن المجلس طُلب من الحكومة هذه الأيام أن تسمح له بعقد قرض قدره تسعمائة

مليون فرنك ليظهر بعض أحياء باريز فأذنت لأنه ثبت أن بعض الأمراض تكثر في حي دون آخر فالواجب العناية بها حتى لا تلوذد الفناء عليها أما أنا فلم أر على كثرة تجوالي راكباً وماشياً في شوارع باريز وأحيائها موضعاً تحدثت النفس أنه محتاج للإصلاح بعد لكثرة ما ترى كل شيء في مكانه وإن مدينة باريز لتتفق على أضواء الكهرباء والغاز الذي تنير به شوارع هذه المدينة السعيدة كل ليلة ما يبلغ مقدار ميزانية بلدية دمشق طول السنة فتأمل.

تاريخ الحضارة الفرنسية

٢٣

بسطنا القول في الفصول السالفة في كل ما يهم عن معرفة باريز وما نحن أولاء نتوخى في هذا الفصل أن نلم بطرف من عمران فرنسا بأسرها وأثرها في الحضارة منذ قامت للعلم والعمل سوق رائجة معتمدين فيما ننقل على معجم لاروس الجديد وما هذه النبذة إلا احتذاء لما ورد في الفصل الفرنسي بتصرف كثير وزیادات.

فرنسا مملكة عظمى في أوربا الغربية يحدها المحيط الأطلنطيقي وبحر الشمال أو المانش من الغرب ومن الجنوب جبال البيرنيه والبحر المتوسط ومن الشرق جبال الألب والجورا والفوسج ويفصل بينها وبين البلجيك وألمانيا خط اتفق عليه من الشمال الشرقي والشمال ومجموع مساحتها ٥٣٦.٤١٨ كيلومترات مربعة وسكانها نحو أربعين مليوناً أي نحو أربعة أضعاف ونصف مساحة سورية ومساحة سورية ١١٥.٠٠٠ كيلو متر مربع والفرنسي كجميع سكان سوريا أخلاط من العناصر مزجتهم بودقة واحدة فجاء منهم شعب ذي قوة عقلية حقيقية واختلفت صفاتهم وميولهم لمذاهب المعاش وإن فرنسا

لغنية بزراعتها أكثر من غناها بمناجها ومع هذا فهي تعد من أغنى البلاد وزراعتها أرقى زراعة في الأرض . . . في أرضها الذهب والفضة والزئبق والنحاس والزنك والرصاص والقصدير والزرنيخ والنيكل والأنثيموان والكبريت ولكن عندها ما ينزمها من الحديد والفحم الحجري.

وإنك لتدهش إذا عرفت أن جزئين من ثلاثة عشر جزءاً من أرضها تزرع وتشجر وفيها نحو عشرة ملايين هكتار من الغابات والعومج ولها في تربية المواشي والحيوانات يد طولى وتجد المعامل الكبرى قائمة في الضواحي الغنية بالفحم الحجري والحديد والخصايل الزراعية القابلة لتحول وقد امتاز كل إقليم بصناعة وباريز هي منكة المدن الصناعية في فرنسا لأنها محط الخطوط الحديدية ومنتهى المواصلات.

امتازت الجنوب بصناعاتها لكثرة الفحم الحجري وكثرة السكان وفيها صناعات اشتهرت شهرة الشمس والقمر كما امتاز إقليم الأردن بالجوخ وأعمال الحديد والألواح الحجرية وامتاز إقليم شامانيا ونورمانديا بالجوخ وأعمال الحياكة والنسيج وإقليم فرانك كونتيه بعمل الساعات وليون وسان إتين بالمنسوجات الحريرية وامتازت المقاطعات المجاورة لها بتربية الحرير والغزل وامتازت البلاد الوسطى بالفخار والخزف والصني والكاشاني وفي ضواحي الكنولم على الينابيع ذات المياه الشفافة معامل الورق والمرسيا الميزة بصابونها وإقليم البروفانس بزموره العطرة التي تستعمل في الطيب وعنى الجملة فإن صناعات فرنسا من أنفس ما تصنع صنع الأيدي في العالم ولا سيما في منسوجاتها الحريرية وصناعة الجوهريّة والبلور والأواني الصنية الدقيقة وكنها مما جعل فرنسا في مقدمة ممالك أوروبا.

تقسم فرنسا من حيث أمورها الإدارية إلى ٨٧ إيالة وهذه تقسم إلى ٣٦٢ ولاية و ٢٨٩٩ كورة و ٣٦١٧٠ مديرية ولها مجلس نواب ومجلس شيوخ ينتخب أعضاء الأول كل أربع سنين وأعضاء الثاني كل تسع سنين وهذان المجلسان هما اللذان ينتخبان رئيس الجمهورية لسبع سنين والقوة الإجرائية بيد الوزارة وهي المسؤولة أمام القوة التشريعية وتقسم هذه البلاد من حيث المعارف والأديان والبحرية والبرية إلى مناطق كثيرة تحالف ترتيب الإيالات وكلها لسان واحد وتربية تكاد تكون واحدة ونظامها واحد.

ومن نظر إلى تاريخ فرنسا السياسي والاجتماعي يتجلى له أنها هي بلاد غاليا المستقلة وهي عبارة عن ولاية رومانية على عهد مملكة الرومان افتتح الرومانيون منذ سنة ١٢٥ قبل المسيح البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط ثم افتتح قيصر البقية سنة ٥٨ ق. م ولم تكن إذ ذاك إلا خنيطاً من العناصر والقبائل لا وحدة بينها ولا جامعة تجمعها ففي الشمال قبائل جرمانية وفي الوسط سنية وفي الجنوب الغربي إيبيرية وفي الجنوب الشرقي ليكورية وفي الولايات الرومانية مدن يونانية ومسحمرات إيطالية يتكلمون بنحو عشر لغات مختلفة ولم تكن لهم وحدة سياسية ولا رئيس أعلى بل كانوا عبارة عن نحو مئة من الشعوب لهم أوضاع مختلفة ويحكم على معظمهم مجلس شيوخ ومن هذه الشعوب من يعيش على حال أفراد ومنها متحدة بينها على التساوي ومنها من يشترك مع غيره ويترك الزعامة لمن يراه أحق بها.

وكانت المدن قليلة جداً في بلاد غاليا وغاية ما كان فيها ملاجئ لأوقات الغارات وهي مراكز الأسواق والزيارات فبلاد غاليا كانت بلاداً زراعية وسكانها ثلاث طبقات الأشراف والمخاربون ومنهم ينتخب أعضاء مجلس الشيوخ والملوك والفرسان وعامة

الشعب كانوا فدادين تقرب حالهم من العبودية ولم يكن يملك الأراضي ثم أصبحت منكاً للأسرات الشريفة.

أما الحراثون فهم من توابع الأرض ويحيء بعدهم العبيد ويعدل من حال الأشراف طبقة الدرويد وهم الكهنة والأطباء والمنجون والقضاة ولا سيما في أوسط البلاد. ولما استقام أمير الرومانيين أقاموا زعيماً عاماً على البلاد ممثلاً بالسنطة المطلقة متصرفاً بالقوة الحربية والمدنية والدينية ونعني به الإمبراطور وهو زعيم الحرب والمشرع المطلق والقانون الحي والرئيس الروحي والرب ثم امتزجت البلاد بالعادات الرومانية واللغة الرومانية بما أتاها من جيوش الرومان وتحرفت لغة الفاتحين فأصبحت اللغة اللاتينية الحقلية وغدت كل أمة غالية مقاطعة برأسها يرأسها زعيم وأخذت التجارة والصناعة ترتقي ولولا أنه كان من حق المالك أن يبيع الأرض بفلاحيهما وهو الحاكم المتحكم في حياتهم ومماهم لركن الفلاحون إلى الفرار.

ولما أخذت النصرانية بالانتشار كانت قاصرة على المدن ولم تتعداها إلى الأرياف إلا بعد زمن وكان من فوائد انتشارها أنها أعلنت بأن الأحرار والعبيد سواء أمام الله هذه هي الفائدة الأخلاقية أما الفائدة السياسية والاجتماعية فقد نشأ منها تأليف طبقة رجال الدين بنظامهم الذي أخذوه عن نظام الحكومة ولم يمس إلا زمن قليل حتى أصبحت الكنيسة حكومة وسط حكومة تحمي أموالاً من الناس ويغدق المؤمنون وأحياناً الإمبراطورة عليها من المال ما تكونت منه ثروة طائلة وتعفى أملاكهم من الخراج كما يعفى خدمتها من الحكمة مع الشعب بل كثيراً ما يحاكم الشعب نفسه في الكنيسة ولطالما كان الأسقف في أبرشيته خصماً لنحاكم السياسي ورقياً عبيداً عليه. ولما سقطت المسكة الرومانية تجزأت

غالياً إلى عدة ممالك بربرية كالفرنك والبورغوند والفيزغوت وعادت كنمة البلاد إلى الانتشار بعد الاجتياح ولم يكن منوك الفرنك يدركون معنى الوحدة كساتر المنوك البرابرة ولا يقيمون للحكومة وزناً ولئن يلبسون الثياب الأرجوانية ويضعون التيجان على رؤوسهم كإمبراطور الرومان إلا أنهم لم يكن لهم جيش دائم وليست لهم طريقة منظمة في الجباية كما أن اللغات في البلاد تعددت وكنها لهجات من أصل روماني تمازجها لهجات بربرية وعادت صنطة الأشراف وصنطة رجال الدين تقرأ حتى لم يعد يعترف السواد الأعظم من الناس بالزعامة عنده إلا لهم ومنهم يطلبون الإنصاف ولهم يدفعون الجزية والخراج وخربت المدن وهاجر رؤساء الجيش والأديار إلى الحقول وضعفت الصناعة والتجارة باختلال الأمن في البلاد وكاد الفلاح يكون عبداً لسيده كما في سابق الأعصار وفي البين الذي أقسم سنة ٨٤٢ في ستراسبورغ ظهرت لأول مرة لغة اشتقت من اللاتينية المستعملة عند الفلاحين ومنها نشأت اللغة الفرنسية وفي معاهدة فردون سنة ٨٤٣ اعترف بوجود مملكة فرنسا وعاصمتها باريس.

وما زالت المنوك تتوالى عليها وتختلف في المبادئ والأطوار حتى قبيل نهاية القرن الثامن وقد حسنت فيه حال الفلاح الفرنسي وزاد عدد المالكين من أبناء القرى زيادة مهينة وارتقت الصناعة والتجارة على ما كان يقف في سبيلها من القيود الكثيرة والأنظمة المتنوعة وارتقت الأدبيات وتحررت من قيودها القديمة وأخذت الفلسفة تبحث في التسامح الديني والحرية والسياسية وإصلاح القوانين الجنائية وتمايز الطبقات الاجتماعية وعارض مونتسكيو نظرية أن الملك منهم من الله وحقه إلهي على سكان الأرض بنظرية الحكم الملكي النيابي ووضع روسو نظرية العهد الاجتماعي.

نهت البارلمانات في مكافحتها سلطة الملوك (سنة ١٧٨٨) أفكار وكلاء الشعب فبدأت الأمة ترفع صرختها وكان الملوك يخفون ولا يرون لها حقاً في مطالبتها بحق واتفق أن وقعت البلاد في عسر مالي فاجتمع وكلاء الأمة ينظرون في حل ما أصابهم فنشأت بعد حين الثورة الأولى (١٧٨٩) وأعلن لويز الرابع عشر أن الأمة كلها للملك ولكن جاء في قانون حقوق الإنسان والوطني أن مبدأ كل سلطة ينبعث من الأمة بجوهره فما من جماعة ولا من شخص يستطيع أن يحكم حكماً لا يكون صادراً عنها بالفعل وهكذا مات حق الملوك الإلهي المزعوم وأتت الثورة على أعشار رجال الدين والإقطاعات والمخبرات والأحكام التي يحكمها أرباب الإقطاع وسادت بين الناس في الواجبات والضرائب وقضت على قليل الكفاءة من أرباب الغنى أن توسد إليه الوظائف الكناسية والحربية بدون استحقاق وحت الحرية الشخصية وحرية الضير وحرية التكلم والكتابة وحرية المسكن وتساوي كل وطني من أكبر كبير إلى أصغر صغير في الخدمة العسكرية ودفع الضرائب كل بحسب طاقته وثروته.

هذا موجز الأساس الذي قام عليه بناء النظام الجمهوري ثم عراه قليل من التعديل بتقلب أنواع الحكومات وقيام بعض الأدعياء بالملك إلى عهد الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين مع ألمانيا وعندما استقرت الحال على ما تراها إلى اليوم.

أما نشأة الآداب والعنوم فنكل منها تاريخ ويقال على الجملة أن اللغة الفرنسية هي بنت اللغة اللاتينية تكونت على صورة غريبة إلى أن وصلت في عشرين قرناً إلى حالتها وكانت أديباهم دينية لأول أمرها وبعضها شعري ونثري وأكثرها خرافي ولم تختص اللغة من القيود العائقة إلا في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. وتاريخ العلم

ونشؤه فيها طويل كتاريخ الأدب ويقال على الجملة فيه أن مرسينيا كانت مدة قرون منبعث العلم الوحيد في بلاد غاليا واشتهرت مدرستها كما اشتهرت كليات آثينا وكنية الإسكندرية وكان بيتياس أحد أبنائها الذي ولد نحو سنة ٨٣٠ قبل المسيح لا يقل عن أعظم الفلكيين في القديم وكانت بيوت العلم تفتح على العهد الروماني في البلاد المهمة والتعليم فيها عبارة عن مبادئ عملية من الحساب والمساحة والبناء ثم جاء دور الانحطاط التام فأصيب العرب بغارات البربر ولم تخرج فرنسا من ظلماتها الفكرية إلا بعد ثمانية قرون بفضل العرب وبينما كان التمدن الإسلامي بالغاً أوجه كانت العلوم منحلة كل الانحطاط في أرض فرنسا. ولم ينتشر الطب والصيدلة في فرنسا إلا بمساعي أطباء اليهود الذين طردهم المسلمون من آسيا الصغرى في القرن الحادي عشر فاعتصموا باسبانيا أولاً ثم بإقليم لانكدوك حيث أسسوا عدة مدارس ومن جنتها مدرسة مونبليه. وهذا كان مبدأ انتشار العلم في هذه الأرض. فمن العرب أخذ الفرنسيون فينا مضى حضارتهم ونحن العرب اليوم نأخذ عنهم وندهش بحضارتهم فسبحان المعز المدلل القابض الباسط.

الصحافة الباريزية

نشأت الصحافة هنا في مبدأ أمرها بنشر أخبار الملوك والوزارات والموظفين والحروب والدول ثم ارتقت بارتقاء المدارك إلى أن صارت تنم بمعظم الموضوعات التي تهم القراء وتعلمهم وعلى عهد الثورة اشتد ولوع الناس بالاطلاع على الحوادث والآراء السياسية

وإلى هذا العهد ظلّ الصحافي في وراء منضدته يكتب ليفيد مثل الأستاذ عني منبره والواعظ في معبده لا يقصد إلا تثقيف عقل وتربية النفس.

ولما تكالبت النفوس على المال واتسع للصحافة المجال بكثرة المواعيل والبرقيات وأخذت التجارة ترقى دخلت الصحافة في طور جديد فبعد أن كانت هي خادمة لتجارة أصبحت هي بنفسها تجارة لا يقصد منها إلا الربح وأول من أنزل أجور اشتراكها إميل جيراندين مؤسس جريدة لا بريس سنة ١٨٣٦ من ٨٠ أو ٦٦ فرنكاً قيمة الاشتراك بالجرائد الكبرى إلى ٤٠ فرنكاً وهي قيمة زهيدة لا تعادل النفقات أنزلها ليكثر قراؤها وإذا كثر قراء جريدة أقبل الناس عليها بإعلاناتهم ومنشوراتهم فاستطاعت بعض الصحف أن تعيش مستقلة عن معونة الأفراد والحكومة والأحزاب.

ولكن هذا الاستقلال وإن لم يكتب لها كلها إلا أن سعيها وراء الإعلانات وخدمة الشركات والبيوت المالية قلدتها أكثر من قبل بل أخرجها عن المقصد منها حتى صارت العشرون الجريدة الكبرى الباريزية اليوم عبارة عن سمسار لا يهتد إلا أن يقبض العنالة من البائع والشاري وغدت الجريدة من مقالاتها الافتتاحية إلى أنبائها البرقية فرفرف قصصها وتقارير الكتب والحوادث الداخلية والخارجية والأنباء النوعية والمقالات الأدبية والاقتصادية والسياسية والإعلانات والمنشورات وغير ذلك مما تخوض الصحف عبابه مثل أخبار دور التمثيل والرياضيات البدنية والسباق لا ينشر منها اسم ولا سطر إلا قبل أن يذهب صاحبه الذي يهتد وينقد أمين صندوق الجريدة مبلغاً معلوماً عنه وعند ذلك ينشر له من الأفكار والحمد ما يشاء وتشاء الأهواء.

فإن كتيباً أو طابعاً لا يقدر أن ينشر كتاباً طبعه إلا إذا انتقده كاتب أو عالم كبير وهذا إذا فرض أنه رضى بأن يخدمه بالجنان يسأله مدير الجريدة عن ربح الإدارة من ذلك. فنقالة في تقرير طابع قد تكلف الطابع ألفي فرنك يأخذ نصفها كاتبها الموقعة باسمه والنصف الآخر مدير الجريدة ومثل ذلك يتناولون من المصورين والموسيقين والمثنيين والراقصات والعقيلات والأنسات والأعاطم والأصاغر لا تدون أسماءهم بالطبع قبل أن يرشوا إدارة الجريدة بمال ترتضيه وكل ما تراه من أخبار الدعوات والرياضيات والآداب ووصف الأزياء مع بائعات الزهور والجوهرين والخياطات والخياطين يدفعه أرباب المأدبة وتجار هذه الأصناف بل أن أخبار الأعراس والأفراح وأخبار المناعي والأموات لا تكتب إلا لمن تؤخذ منه أجرها والأعمال الأدبية مهنا ينع من مكانتها لا تذكر بكنية قبل أن يدفع صاحبها جملة لقاء ذكر اسمه وهناك المالبون وأرباب التجارة يريدون أن يعيشوا بحالة الأسواق ويعرفون أن السياسة تؤثر كثيراً في أعمالهم فيعدون إلى ابتاع الجرائد لكتب في السياسة على هواهم فيرفعون الأسعار يوم يريدون الرفع ويخفضونها كذلك بمالهم بواسطة هذه الجريدة من التأثير في الأفكار العامة ومنهم من يبتاع من الجرائد كلامها كما يبتاع منها سكوتها فدار النعب في إمارة موناكو تدفع مشاهرات إلى جميع الصحف الكبرى لتسكت عنا يحدث فيها من ضروب الانتحار والخراب والنجائع التي تنشأ من المقامرة كما تدفع مبالغ جسيمة أيضاً في أوقات معينة لتأخذ الصحف في حد مرافق مونتيكارلو ونزلها ودور تمثيلها وسواحنها وصفاء العيش فيها. وإن أعظم عناء الاقتصاد لا تنتشر له مقالة في موضوع مالي قبل أن يوافق عليها المصرف الذي ابتاع من تلك الجريدة روحها المالية ليصرفها كما يشاء وبعد حادثة بناما

التي ظهرت فيها رشاوي الصحف الإفريقية لم يعد يقدر الإنسان أن يقرأ سطوراً في شأن مالي في جرائدهم إلا ويشك فيه.

وهكذا أصبحت الصحافة الباريقية مقيدة في صورة حرة مطلقة ففي وسعها أن تصرّب في كل ما تريد وتزعج كل أساس وتهاجم كل موضوع وتقتاب كل امرئ وتتم عن كل عمل وتفتت على كل فرد ولا يحظر عليها إلا شيء واحد وهو أن تكشف الغطاء عن الأسرار المالية فإذا فعنت يحكم على الكاتب والناشر والجريدة بأشد عقوبات العطل والضرر وكذلك إذا دلت على الطرق الاحتيالية التي يعيش بها اخل القلائي منذ سنين.

وعلى ذلك فالجرائد هنا يجب أن لا تقرأ إلا بحذر شديد حتى مقالات لها في الكينياء أو التاريخ فإنها لا تنشرها إلا ولها منها مآرب يظهر بعد أعندة من نفس العدد أو في عدد تال. وخف كل الخوف من الصحف التي تخدم الأحزاب جهازاً فإن هذه تقلب الحقائق الناصعة وتجسم الحوادث أو تضعفها بحج هواها وتعمل من النطة ما يضحك ويكي.

فكان الصحافة الباريقية جعلت لقلب الحقائق لا لقدرة أن تمقط فيها على حقيقة خالصة من الشوائب فهي تزيد إلى ضعف البشر الطبيعي وغلطهم وخطأهم أموراً تأتيها بذاتها بالقصد لتحريف الحق وتشويهه فمنها ما يخضع لحكومة في كل ما يكتب ومنها ما يخضع للأحزاب وكنهم خاضعون لزينهم وكثير منهم يقولون كل ما يريدون على شرط أن يحسن المرء دفع المطنوب منه. فقد قيل أن الرياء تكريم الرذيلة للنفسية والصحف الفرنسية تكرم الحقيقة من هذا النوع أي أنها هي الرذيلة.

هذا ما اقتبسته من فكر الكاتب الفرنسي في هذا الباب وصاحب الدار أدري بالذي فيه وقد أجمع العقلاء الذين لقيتهم من أهل العلم والمطبوعات وغيرهم على أن الصحافة الفرنسية كلها ترتشي وتنفق في أحاديثها وتكذب في رواياتها ما عدا جريدة لاومانيته أي الإنسانية وهي لجوريس أحد زعماء الاشتراكيين تعيش من وارداتها الشرعية ولا تسف لتناول رشوة من أحد وإن الصحافة الإنكليزية أشرف غاية وأبل قصداً وأكثر مادة وأوسع مصادر أما أنا فعلمت هذا التصريح من أصدقائي الفرنسيين بأن إنكثرا هي أرقى الأمم بأخلاقها والأخلاق هي معيار الأمم والجرائد مرآتها.

ومن الصحف الباريزية ما يصدر صباحاً وأكثرها جرائد لا تهتم بالمسائل السياسية بل بالأمور المالية والحركة الأدبية كدور التمثيل والخطب وغيرها أما جرائد المساء فأكثرها يهتم بالسياسة فالطان والديبا من الجرائد المسائية والجورنال والماتين والبي باريزين والبي جورنال من الجرائد الصباحية والجرائد طبقتان قسم لعامة القراء وهي التي ينادي عليها المنادون في الشوارع بأعنى أصواتهم وتباع في كل مكان فيقرأها البواب والحوذي والمساح والكساح وسائق الأتوموبيل والشرطي والمرتزق وبعض التجار وذلك ككثير الجرائد الصباحية وقسم للطبقة العالية وأبحاثها لهم بالطبع مثل الطان والديبا والفولوا والفيغارو وهذه لا ينادي عليها وتباع بشئ أغلى فإلطان يبتاع عددها بثلاثة فنوس أو خمسة عشر سنتيماً في حين تباع تلك الجرائد العامة بفنوس واحد وهي أكبر حجماً وأوسع مادة من هذه ولكن شتان بين مادة ومادة وحجم وحجم.

وجريدة الطان هي الجريدة الوحيدة التي تعنى كثيراً بأخبارها هذا الشرق الأدنى خاصة والسياسة الشرقية عامة وهي جريدة وزارية تقدر كل وزارة تأتي وهذه بالطبع تعطى

أخباراً وربما أمدتها بمعونة مالية وهي لا تذيل المقالات السياسية والإخبارية بأسماء كتابها على عادة معظم الجرائد السياسية وبذلك قد يقع لها أن تؤيد اليوم في مقالاتها الأولى فكراً مخصوصاً ثم يجيء كاتب آخر من الغد في نفس ذاك المكان من الجريدة فيضعف ذاك الرأي بعينه وينقده. وأعرف الجرائد بالشرق على التحققي هي هذه وربما كانت جريدة الإيكونوميست من جرائد الصباح أكثر منها مادة برقية إخبارية عنه بدون تعليق على الحوادث. ومقالات الطان عن السياسة الشرقية تتناقل لأنها أقرب إلى الثقة والعقل من غيرها ومع هذا تؤخذ بكل حذر شأننا مع عامة الصحف الإفرنجية التي تقول الحق ولكن إذا صادف هوى لها وهيئات أن تقوله بدون عوض. ولقد كنت أظن جريدة الديبا وحدها ترتشي من السلطان عبد الحميد المخنوع ولكن عذبت هنا أن الطان أيضاً على ما فيها من الغمز واللمز بالدولة كانت لا تستكف من قبض الخمسة آلاف ليرة من أعوان ذاك السلطان لتكتب على هواه يوماً لعلم المخنوع بمكانة أقوالها في الأندية السياسية.

وأأنواع الجرائد هنا كثيرة ومنها اليومي الذي لا يكتب إلا في موضوع واحد مثل جريدة كوميديا وهي تبحث في دور التثيل والقصص التمثيلية والفاجعات وغيرها ومنها جرائد للسباق مثل جريدة الأوتو وهي لنشر أخبار سباق الخوافل الأتوموبيل وغيرها من أنواع السباق ومن جرائدهم ما هو خاص بتأجير الأملاك والعقارات ومنها الخاص بطلاب الزواج وطلباته ومنها للأزياء وأخرى لنعطور والطبوع ومنها للأخبار الخلاعية ولكنها مقصورة على طبقة خاصة تطبع سراً وتوزع كذلك وإذا رآها الشرطة صادروها وأنزلوا العقوبة الشديدة بكتبتها وبائعها ومشتريها.

أما تنظيم إدارات الجرائد الكبرى فهو الغاية ولا سيما الأمهات منها مثل الماتين وهي في أعظم جادة وبنائها أجمل بناية وآلاتها الطابعة أحسن الآلات فيها اثنتا عشرة واحدة تطبع الواحدة مئة ألف نسخة في الساعة زرعها مع زهاء سبعين رجلاً وامرأة رأيتهم سيقوني إلى زيارتها فيما رأيت نظاماً أتم ولا استعداداً استوفى من الكمال أوفى القسم ومن أحسن ما قرأته. مما كتب فوق غرف المحررين خلق آخر ليكتب فلا تشغله فيما لا يعنيه وزرت أيضاً إدارة البتي باريزين وهي دونهما في الاستعداد وإن لم تكن دونهما في الانتشار والنفاذ.

تربية النبات

لحافظ أفندي إبراهيم

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي ... في حب مصر كثيرة العشاق
إني لأحلم في هواك صباية ... يا مصر قد خرجت عن الأطواق
لهفي عليك متى أراك طليقة ... يحني كريم حماك شعب راق
كنف بمحمود الخلال متيم ... بالبذل بين يديك والإتفاق
إني لتطربني الخلال كريمة ... طرب الغريب بأوبة وتلاق
ويهزني ذكر المروءة والندى ... بين الشئائل هزة المشتاق
مالبالبية في صفاء مزاجها ... والشرب بين تنافس وسباق
والشمس تبدو في الكؤوس وتختفي ... والبدر يشرق من جبين الساقبي
بالذ من خلق كريم طاهر ... قد مازجته سلامة الأذواق
فإذا رزقت خليفة محمودة ... فقد اصطفاك مقسم الأرزاق
فالناس هذا حظه مال. وذا ... عنم. وذاك مكارم الأخلاق

والمال إن لم تدخره محصناً ... بالعلم كان نهاية الإملاق
 والعلم إن لم تكتفد شمائل ... تعليه كان مطية الإخفاق
 لا تحسبن العلم ينفع وحده ... ما لم يتوج ربه بخلاق
 كم عالم مد العلوم حبالاً ... لوقية وقطعة وفراق
 وفقه قوم ظل يرصد فقهاء ... لمكيدة أو مستحل طلاق
 يمشي وقد نصبت عليه عمامة ... كالبرج لكن فوق تل نفاق
 يدعونه عند الشقاق وما دروا ... أن الذي يدعون حلف شقاق
 وطيب قوم قد أحل لطفه ... ما لا تحمل شريعة الخلاق
 قتل الأجنة في البطون وتارة ... جمع الدوائق من دم مهراق
 أغنى وأغن من تجارب عنقه ... يوم الفخار تجارب الخلاق
 ومهندس لنيل بات بكفه ... مفتاح رزق العامل المطراق
 محنت تندى وتيس كفه ... بالماء طوع الأصفر البراق
 لا شيء يلوي من هواه فحده ... في السلب حد الخائن السراق
 وأديب قوم تستحق يمينه ... قطع الأنامل أو لظى الإحراق
 ينهو وينعب بالعقول بيانه ... فكأنه في السحر رقية راق
 في كفه قلم يمج لعبه ... سماً وينفثه على الأوراق
 يرد الحقائق وهي بيض نصح ... قدسية عنوية الإشراق
 فيردها سوداً على جنابها ... من ظننة التويه ألف نطاق
 عريت عن الخلق المطهر نفسه ... فحياته ثقل على الأعناق

لو كان ذا خلق لأسعد قومه ... ببيانه ويراعه السباق
 من لي بتربية النساء فإنها ... في الشرق علة ذلك الإخفاق
 الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق
 الأم روض أن تعدده الحيا ... بالري أورك أيما إبراق
 الأم أستا الأساتذة الأولى ... شغلت مآثرهم مدى الآفاق
 أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً ... بين الرجال يجنن في الأسواق
 يدرجن حيث أردن لا من وازع ... يحذرن رقبتن ولا من واق
 يفعلن أفعال الرجال لوهاً ... عن واجبات نواعس الأحداق
 في دورهن شؤونهن كثيرة ... كشؤون رب السيف والمزراق
 كلا ولا أدعركم أن تسرفوا ... في الحجب والنضيق والإرهاق
 ليست نساؤكم أثاثاً يقتنى ... في الدور بين مخادع وطباق
 تشكل الأزمان في أدوارها ... دولاً وهن عني الجلود بواق
 فتوسطوا في الحالتين وانصفوا ... فالشر في التقييد والإطلاق
 ربوا البنات عني الفضيلة أئماً ... في الموقفين لمن خير وثاق
 وعنيكم أن تستبين بناتكم ... نور الهدى وعني الحياء الباقي
 مطبوعات ومخطوطات

(معدرة إلى المؤلفين والطابعين الذين أهدونا مؤلفاتهم لتكلم عنها في هذه اللجنة فعافت
 الأحوال التي طرأت علينا دون القيام بما اعتدناه في السنين السالفة من التوسع في نقد
 الكتب وتقريظها والمبادرة إلى النشر في حينه ولذا نرجوهم أن يعذرونا عني إيجاز القول

ونعدهم بأن كلامنا يكون من قابل أطول نفساً وأوسع مادة. وها نحن أولاء نبدأ بمجلة مما كتب في الغرب على الشرق أو نشر في ديار الغرب من علوم الشرق ثم نتبعه بما صدر من المصنفات الجليلة بالنظر في هذا الشرق الأقرب ونستريح عذراً ممن تفضلوا بإهدائنا ما عربوه من القصص ونشروه من الروايات على إغفال ما نشروه لأن المجلة لا تشير إلا إلى المصنفات التي توافق موضوعاتها في الأدب والاجتماع والعلم وتعنى بما يصنف رأساً في الأدب أكثر من عنايتها بما يعرب فيه كما أنها تعنى بالكلام على ما يكتب أو يعرب في الاجتماع والعلم على حد سواء).

الشرق الإسلامي

كتاب بالألمانية نشره المسير مارتين هرتمن من علماء المشرقيات وهو ممن يهتمون بمجمل العرب وكتابه قسمان قسم في تاريخ العرب وينقسم إلى ثلاثة أقسام العربية القديمة والعربية الوسطى والعربية الحديثة واعتمد في سرد التاريخ على الآثار أكثر من النقول التي لا ينهض دليل تطعن النفس ومتى فقدت المادة التاريخية فليس من تاريخ وخصر كلامه على اليمن لأن ما اكتشف من آثارها الحجرية يسهل البحث في تاريخها وقال أن اليمنيين كانوا شعباً رحالاً ولم يكونوا عرباً كما يفهم من معنى هذا اللفظ في القديم إذ كان معناها البدو أو سكان البادية وما قط كان العرب الرحالة كثار العدد ومن الغلط أن يقال أن القفر كان مادة حياة المدن القريبة منه في سكانه. وقد كان الأشراف في اليمن وهم الأذواء أي ذو يزن وذو رعين وغيرها هم المحتكرون لتجارة والسواد الأعظم من الأهليين ينقسمون إلى قبائل يخضعون للأشراف ويعيشون بالزراعة وانتشرت الديانة اليهودية في اليمن إلا أنها كانت قليلة البقاء كما أنها لم تطل أيامها في جزيرة

العرب وقد أسقط الحبشة دولة ذي نواس وتكنم المؤلف على الأسرة والزواج والقبائل وشرح حالة جنوبي الجزيرة العربية من حيث زراعتها وتجارها وآثارها وديانتها وقابل أن أفكار البابيين قد انتشرت في العالم الشرقي كنه وأن هضبة البلاد العربية لا تتم إلا بمد الخطوط الحديدية وإنشاء الكليات الإسلامية.

تاريخ الإسلام

نشر المسؤولون كاتاني من أشراف إيطاليا والمشتغلين بالعلم فيها الجزء الثاني من هذا التاريخ الضخم بالإيطالية وهو يحتوي على تاريخ ١٢ سنة من الهجرة أي في أوائل الفتوحات الإسلامية ويقول من درسوا هذا التاريخ أنه من أكمل ما ألف في تاريخ الإسلام حتى الآن.

الخطاطون والمصورون في الشرق الإسلامي

نشر المسير كنيان هوار من علماء المشرقيات باللغة الإفرنسية كتاباً في هذا الموضوع ذكر فيه الخطوط العربية ومنشأها ونشوءها وجعل الخطوط طبقات بحسب ترتيب سني الخطاطين فقال أن الأصل في الخط العربي الكوفي المأخوذ من الخط السرياني والنبطي ثم قام ابن مقنة فأسس الخط الأول وجاء بعده ابن البواب وياقوت المستعصمي ثم قام الأساتذة السبعة في الخط في آسيا الصغرى سنة ١٥٢٠ ورأسهم الشيخ حمد الله بن مصطفى البخاري نديم السنتان بايزيد الثاني. أما تذهيب الكتب فغير معروف فإن قصر الأمويين المعروف بقصر عمرة الذي اكتشف حديثاً قد وجد فيه صور من أصل بزنتي مثل التي تزدهان بها المخطوطات العربية القديمة.

نشر الدكتور كننر من علماء المشرقيات السويسريين الجزء السادس من تاريخ بغداد مؤلفه أحمد بن أبي طاهر طيفور من أهل القرن الثالث للهجرة وهو في سيرة المأمون بداه بحوادث سنة ٢٠٤ وختمه بحوادث سنة ٢١٨ ففيه ذكر الوقائع الأخيرة من عهد هذا الخليفة الكبير وليس فيه شيء زائد عما عرف من حال ذاك الدور السعيد عني نحو ما ذكر في مطولات التاريخ ولكن فيه فوائد غيرها مثل ترجمة بعض رجال المأمون ككاتبه أحمد بن يوسف ويقول ناشره — الذي استنسخه وطبعه عني الحجر وقدم له مقدمة باللغة العربية تبين الغرض من نشره — أن ابن جرير أخذ عن ابن أبي طاهر ما يتعلق بتاريخ المأمون وفي ذلك نظر.

تاريخ حكام مصر

نشر المستر كونيج من علماء المشرقيات الأميركيين تاريخ أبي عمر محمد بن يوسف الكندي وهو تاريخ القرون الثلاثة الأولى للهجرة ومرجع من أحسن المراجع في تاريخ الصدر الأول في وادي النيل لقرب مؤلفه من الوقائع.

تاريخ قضاة مصر

نشر المستر كوفيل أستاذ اللغة العربية في جامعة كولبيا الأميركية تاريخ قضاة مصر للكندي الذي اعتمد فيه عني كتاب عبد الرحمن بن عبد الحكيم في كتابه فتوح مصر وأتمه أبو الحسن أحمد بن عبد الرحمن بن برد إلى سنة ٣٦٦ هـ وأوصفه مؤلف مجهول إلى سنة ٤٢٦.

ولاية بغداد

هو كتاب في ٣٣٨ صفحة طبعه بالعربية حبيب أفندي شيحة وفيه وصف هذه الولاية وماضيها وتاريخها ووصف سكة بغداد الحديدية وبحث في القبائل البادية بين النهرين.
ديوان السوأل

نشره الأب لويس شيخو اليسوعي في بيروت وقد عثر على النسخة الأصلية منه الأب ألتاس الكرمني الحافي البغدادي عند أحد كتبية دمشق.

الفرق بين الفرق

هو كتاب لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي من أهل القرن الخامس طبعه وعلق حواشيه محمد بك بدر في مصر وفيه ذكر الفرق الثلاثة والسبعين الواردة في الحديث.

طبقات الصحابة

نشر الجزء السادس من كتاب طبقات الصحابة لابن سعد المتوفى سنة ٣٢٠ هـ تحت نظارة المسيو شاشو وبناية الأستاذ زترمتين من كلية أوسال وفي هذا الجزء تراجم دعاة الإسلام في الكوفة ومنهم أناس من الصحابة مثل ترجمة عني بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وأبي موسى الأشعري وسنان الفارسي.

نفيد الصم ومبيد النقم

نشر الأستاذ داود مهران هذا الكتاب لباج الدين السيكي من أهل القرن الثامن وصاحب جمع الجوامع وفي هذا الكتاب وصف المؤلف الحياة الاجتماعية في عصره فذكر الولاة والقضاة والقواد والمحتسين والمربين والأساتذة والتجار والدراويش والصناع والأطباء والكحالين والحلاقين وغيرهم وهو في ٢٤٠ صفحة.

تجارب الأمم

هو تاريخ لابن مسكويه المتوفى سنة ١٠٣٠ م وهو التاريخ النفيس المنقح الذي فضله بعضهم على تاريخ الطبري بما فيه من صحة الأسانيد والنقد التاريخي نشر في لندن على نفقة أسرة جيب الإنكليزية وقدم له الكنت ليون كايثاني المستشرق الإيطالي مقدمة.

تاريخ السلاجقة

هو تاريخ بالفارسية لنوزير محمد الحسيني البردي من أهل القرن الثالث عشر للبلاد طبع في مصر الدكتور كارل سوسهيم الألماني في ١٩٢ صفحة.

إغاثة اللهفان

هي رسالة في حكم طلاق الغضيان تأليف شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية عني بتصحيحه الشيخ جمال الدين القاسمي ووقف على تصحيح طبعه حسين وصفي أفندي رضا طبع مطبعة المنار بالقاهرة وهو في ٤٨ صفحة.

حياة اللغة العربية

هي مسامرة أو محاضرة للشيخ الحضرمي بن الحسن في تونس أتى فيها على أطوار هذه اللغة وأساليبها ومطابقتها مع المدنية واتحاد العامية بالفصحى طبعها في تونس في ٦٠ صفحة.

الشهاب في الحكم والآداب

تأليف أبي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن حكنون القضاعي المتوفى سنة ٤٥٤ هـ وهو حكم نبوية مختصرة طبع في بغداد.

وشاح الكاتب

وزينة الجيش الغالب

هي رسالة في منحصر القوانين التي سنّها الأمير عبد القادر الحسيني الجزائري في ٣٣ صفحة طبعت بدمشق.

مرشد العائلات

إلى تربية البنين والبنات

وهو مختصر في التربية الجنسية منذ الحمل إلى سن الولادة تأليف المرحوم حسن أفندي توفيق طبع في بيروت لإعانة دار العنوم.

تدبير صحة الأطفال

وهو كتاب في صحة الأولاد وما يعرض لهم وما ينبغي وقايتهم منه للدكتور أمين دمر طبع في الاسكندرية.

حالة اليسن

هي رسالة مطولة اسمها يمنة استجلاب نظر دقت كتبها بالتركية جمال الدين أفندي الخطيب ذكر فيها ما صارت إليه حالة اليسن من الانحطاط الإداري وطبعها في الأستانة.

عبرة وذكرى

أو كفة حول الشورى للدكتور أيوب ثابت ذكر فيها المذاهب السياسية وأنه لا دخل للأديان في ترقى نوع الإنسان طبعت في بيروت.

مجلات جديدة

المورد الصافي - كتاب لجرجس أفندي الخوري المقدسي يصدر في بيروت كل أربعة أشهر جزء منه في ١٠٤ صفحات يتضمن مختارات من الخطب والمقالات والأشعار والآراء العصرية في التربية والتهديب.

الهداية - مجلة دينية علمية أدبية اجتماعية لمنشئها الشيخ عبد العزيز جوايش تصدر في مصر كل شهر في ٧٢ صفحة.

الزهور - مجلة أدبية فنية علمية لصاحبها أنطون أفندي الجليل تصدر في القاهرة في أول كل شهر في ٤٠ صفحة.

الحقوق - مجلة حقوقية نصف شهرية لمنشئها الخامين سليم بك المعوشي وملحم بك خلف في لبنان وهي في ٣٢ صفحة.

الإنسانية - مجلة علمية أخلاقية اجتماعية انتقادية عراقية لمنشئها الشيخ حسن الرزق تصدر نصف شهرية في حماة في ٣٢ صفحة.

كتب متفرقة

نشر المير كومب باللغة الإفرنسية تاريخ ديانة السين في بابل وآشور ذكر فيه الأنساب والأساطير واللاهوت والآثار والمصانع والعبادات والمعابد وتأثير الأديان العيلامية والعربية والسورية وغير ذلك من الفوائد.

وكتب أيضاً كل من الكولونيل ألوت ولانوي وجنر يلاك كتابين على الصومريين وهم سكان أسفل بلاد بين النهرين وكانوا في رأيي أحدهما قبل المسيح بثلاثة آلاف وخمسمائة سنة مستنداً في ذلك إلى ما عثر عليه من المواد الأثرية ولا سيما في تلول التي ملأت آثارها متاحف العالم. ونشر أوجين أوبين كتاباً بالإفرنسية في فارس اليوم وما وراء النهرين ولا سيما الأماكن المقدسة في العراق وبحيرة أورورومية وبغداد وطريقها إلى همدان ونشر رايغوند ويل كتاباً في جغرافية شبه جزيرة سينا وتاريخها. والمير أبيل كتاباً في وصف الشعب الإسلامي في تلسان من أعمال الجزائر. ونشر إيوليت دريفوس كتاباً في تاريخ

البهائية وحالتهم الاجتماعية. ونشر رينه بنون كتاباً بالفرنسية في أوروبا والمملكة العثمانية وفيه مستندات تاريخية وسياسية كثيرة.

سير العلم والاجتماع

مدارس الفرص

من جهة التعليم الذي كثر بين الأمم الغربية بكثرة المواصلات أن بعض المدارس أو الجمعيات لا تحب أن تصرف التلاميذ إلى بيوت ذويهم في الصيف وتحصر على تعليمهم وتربيتهم والسياحة في هذا الفصل فابن إنكترا يطوف به أساتذته بعض بلاده أو يأخذونه إلى فرنسا وإيطاليا وألمانيا واسبانيا وسويسرا وابن ألمانيا كذلك والسكن الحديدية في هذه الممالك تقط من أجورها قسماً عظيماً لتلك المدارس والجمعيات حتى أن التلميذ لا يدفع عن ستة أسابيع سوى ليرتين إنكيزيتين وعن أربع أشهر أربع ليرات فرنسوية.

تطهير ماء الشرب

رأى طيبان إيطاليان أن أفضل الطرق لتطهير ماء الشرب من الجراثيم الضارة أن يجعل فيه محلول فلورور الفضة فلا تمضي نصف ساعة إلا وتقتل الجراثيم كلها ويمكن أن يعرض الماء بعد ذلك زمناً للهواء الطلق بدون أن يكون فيه أدنى خطر من جراثيم جديدة.

اللغات الحية

عقد في باريس هذه السنة المؤتمر الدولي للغات الحية فتباحث أساتذة البلاد المتحدنة في الطرق التي تمكن التلامذة من الاسعداد اللازم لهم في جهاد القرن العشرين فكانت

النتيجة أن الواجب تعليم أساتذة المستقبل اللغات الحية تعليماً عالياً لترسخ فيهم رسوم لغاتهم الأصلية فلا يكتفى بتلقينهم من اللغة الأجنبية نحوها وصرفها وشيء من لغتها والتكلم بها بل يعينونها أرقى تعنم عام أدبي فلسفي. واتفقت الآراء على أن اللغات الحية إذا أريد إنزائها منازل التربية تعادل تربية اللغات القديمة فالواجب أن يكون بلغ أساتذتها الذين يعهد إليهم تعليمها درجة عالية توازي درجة علماء اللغات القديمة وأجمعوا على أن التعليم الثانوي يجب إصلاحه بحيث يتخرج منه أناس لا ملمون باللغات الأجنبية الحديثة فقط بل ممتازون بها امتيازاً يناسب روح العصر الحاضر ورأوا أن إحكام اللغة وحده لا ينشأ منه ما يقال له قيمة مربية ودرجة راقية في المدنية والآداب بل أن يشفعه درس أخلاق تلك الأمة التي يتعلم الطالب لغتها ويتشرب روح آدابها وتاريخها فإن الإطلاع على لغة حديثة ليس من الغايات بل من الوسائط فهو آلة من أئمن الآلات في جهاد الحياة فلا يكفي أن يعنم المرء كلمات وجملاً وقواعد نحوية وصرفية بل أن يدخل في حياة الشعب الغريب عنه فبعد أن يدرس الطالب قوانين لغة أمة يحيط علماً بأخلاقها وتاريخها وآدابها وكيفية تصورها معنى الحياة وخير الدرائع لبلوغ هذا القصد الرحلة إلى البلاد التي يعنم المرء لغتها فيها زمناً وهذا ما يجب أن يكون من دعائم التربية اليوم كما كان فتيان المسلمين في رومية يسيحون في بلاد يونان في سالف الأزمان. واصحح المتأملون الإكثار من الإنفاق على المتعلمين ما يقوم برحلاتهم ودعوا البنديات والأسرات والجمعيات والحكومات والمحسنين إلى التنافس في هذا المضمار لأن مثل هذه الرحلات توسع الفكر وتشحذ النشاط وتنبه الشعور بالانتقاد وتقوي الوطنية بالمقابلة بين البلاد ومن أهم نتائج هذه التربية الحديثة تفريب ما بين قلوب الأمم المتعددة.

وانعقدت في أكسفورد ببلاد الإنكليز جمعية اللغات الحديثة فقال الرئيس في خطاب له أن أغنية رولاند ونبنجن ليد لا تقومان مقام أغاني هوميروس ولا دانتي يخلف فيرجيل مرشده وأستاذه ولا بسكال يضطرنا إلى نسيان أفلاطون ولا بوسويه ينسينا شيشرون ومعنى هذا أن من رأيه أن التربية الأدبية الكامنة **تتطلب** دراسة كتب القدماء كما تتطلب درس آثار اخلائين وأفاض على هذا النحو متاولاً الموضوع الذي أجمع عليه مؤتمر باريز ورأى أن تعميم اللغات كما هو شائع الآن في إنكلترا تعميماً سطحياً ويراد منه الخهم مع الأجانب الاتجار هو ناقص الجهاز والأولى التعنى في الدراسة.

التربية في الهواء

أخذ علماء التربية منذ حين في ألمانيا وفرنسا يحثون عن الطرق التي يعنون بها التلامذة في الهواء الطلق ويخلصونهم من ازدحام الأنفاس في صفوف المدارس لما فيها من إضعاف أجسامهم وإفهاك صحتهم وذلك بدون أدنى نقص في تعليمهم ومن عني بهذا الموضوع الأستاذ فلانت أحد مديري المدارس العالية في ألمانيا فكتب بعد التجارب العديدة في أبناء مدرسته أن تعميم التلاميذ في الهواء الطلق لا يناسب إلا الأولاد الذين تقدموا قليلاً في السن وفي هذه الحال يعنى التلامذة أصول الرياضة البدنية ولا يصعب تعليمهم خارج الصفوف دروس العلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا واللغات الحية والرياضيات وقد ألف في هذا الموضوع كتاباً تداولته الألسن بالتناء.

التلامذة والأساتذة

كتب أحد علماء الإفرنج بحثاً ضافياً أخذ فيه رأي ٨٧ أستاذاً مع تلاميذهم عن المواد التي يختار التلامذة تعليمها فكانت النتيجة أن المواد التي يحبها التلامذة أكثر من غيرها

ليست هي المواد التي يرتاح الأساتذة إلى تعليمها فالتلامذة يحبون الرياضيات البدنية والأعمال اليدوية ثم التصوير والتاريخ ويتأفقون من التعليم الديني والإملاء والتاريخ الطبيعي. أما الأساتذة فأحب الدروس إلى قلوبهم التاريخ وليست للرياضة البدنية منزلة من قلوبهم.

تعليم التاريخ

كتب أحد الألمان العارفين بمبحثاً في مجلة عنية قال فيها نشأ من تعليم التاريخ أن كثيراً من المعلومات التاريخية بناها المرء والضرورة منها استظهاره مؤقتاً يساعد على تربية القلب والذكاء والإحساس الإنساني والوطني فيجب على معلم التاريخ أن يغفل من درسه مالا يضر جهته ويتوسع في المسائل المهمة فيعنى بما ينطبق على الحال الحاضر من مسائله وعن تعليل أسبابها وتكوينها وينظر نظراً بعيداً فيما تمس حاجتنا إليه في حياتنا ولا يكتفى بالمعرفة البسيطة الغير المعقولة من الماضي ويحب تبيه الذهن وإعداده لإدراك العالم الحاضر السياسي والاجتماعي والديني وأحوال الرجال المعاصرين وأن تقوى الوطنية بدون أن تكون إلى العصية الجاهلية ويقصد بالتاريخ تخريج رجال ووطنين بإطلاعهم على ما وقع لمن قبلنا وما هو دائر الآن حوالينا. وهذا ما يقصد من روح التاريخ.

المدارس الألمانية في العالم

نشر أحد علماء الألمان كتاباً سماه المدارس الألمانية في الخارج جاء فيه أن لألمانيا في روسيا ٦٠ مدرسة فيها ١١٠٠ تلميذ وفي رومانيا ٣٠ مدرسة فيها ٤٢٠٠ وفي البنجيك ١٠ مدارس و ١٩٠٠ تلميذ و ٦ مدارس في البلاد العثمانية في أوروبا فيها ١٨٥٠ تلميذاً و ١٤ في إيطاليا تحوي على ٨٨٠ تلميذاً ومدرسة واحدة في فرنسا (بياريز) فيها ١٥٠

من باطن القدم أولاً لأنه معرض للاحتكاك بالأرض التي تسكنها الجراثيم ويقدر
المصابين بهذا المرض بمئوي نسبة أكثرها في جنوبي أميركا.

درجات التغذية

ما من شيء مهم في التغذية أكثر من التدقيق في معرفة ما يتركب منه طعامنا حيوانياً كان
أو نباتياً أو معدنياً جامداً كان أو سائلاً فالأصل في طول حبل العمر متوقف على الإحاطة
بذلك فقد قال أحد الأطباء أن الواجب على المرء قبل المباشرة في الأكل أن يعرف درجة
التغذية فيما يتناوله والمقدار اللازم له منها. وقال غيره أن من أوائل قواعد حفظ الصحة
أن يعرف المرء النسبة بين التغذية والإنفاق عليها. ولكن هذه القواعد قلما يعمل بها
بالفعل وكثير من الناس يجهلون كل الجهل ما يدخل في الطعام من درجات التغذية وقد
نصح الدكتور فيشر من كلية يال في أميركا أن تعلق القائمة الآتية في المدارس وغرف
الموائد لمعرفة درجات التغذية في كل طعام وما هي مرتبة بحسب مكانتها من التغذية:

الشار والجوز والحبوب والعمل والزبدة.

البطاطا وغيرها من البقول التي تقشر.

السمن والمنح القليل والقشطة والبن والحليب والبيض وسكر القصب وشوكولاتو النوز
الهندي.

الجبن المطبوخ والبن الرائب.

البقول التي تؤكل بقشورها.

المعجنات.

الجبن المخمر وجبن روكفور وغيره.

التريد.

الحساء بالنعم وخلاصة النعم.

الشاي والقهوة.

النعم والسك والطور.

الكبد.

التوابل ما عدا الملح.

الألكحول.

توراة الشيطان

قالت لجنة مطالعاتنا في البيوت ما تعريبه: من جهة التحف المحفوظة في خزانة الكتب الملكية في استوكهلم كتاب مخطوط أطلقوا عليه اسم توراة الشيطان كما يسمونه ماورد الكتب لضخامة حجمه المتناهي ويبلغ طوله ٩٠ سنتراً وعرضه خمسون ولا يستطيع نقله سوى ثلاثة رجال وهو ذو ٣٠٩ صفحات ضاع منه سبع وقد كتبت كل صفحة على عنودين. وحسبوا ما وضع لهذا الكتاب من الورق فكان ١٦٠ هماراً وحروفه من نوع الكوتينك الصغير وأوانل الحروف الكبرى جمعت بالذهب المنون وزينت بالصور وجنده من البلوط الغليظ ثخنته أربعة مستترات ونصف وأقفاله من المعدن. ولما حرق القصر الملكي في استوكهلم سنة ١٦٩٧ أصيبت هذه التوراة بروض فطرحوها من النافذة إلى الشارع فتعطلت أقفالها ثم أصنحت.

خاتمة السنة الرابعة

نحمد الله عَلَى أن وفقنا إلى النجاة من مآزق السنة الماضية وأقلها مما يعوق عن التأليف والطبع والنشر في بلاد أعنتها الجهالة والجهلاء وأفسدتها السياسة الخرقاء قروناً وأزماناً. فقد اضطررنا بعد نقل المقتبس من القاهرة إلى دمشق أن نعالج السياسة فأصدرنا جريدة يومية باسم المقتبس لتخدم الإصلاح الإداري الاقتصادي ككل يوم كما يعالج شقيقتها الأكبر الإصلاح العنسي والاجتماعي كل شهر وما أعظم ما قاسيناه من ممارسة أعداء الدولة والأمة فتربصوا بنا الدوائر وفي مقلتهم صنعة عبد الحسيد المخنوع وموجد الجاسوسية في الأستانة ناظم باشا والي سورية السابق فقد شق عليه مطالبتنا بالإصلاح فقام ينصب لنا شراكاً يريد بما إهلاكنا فأتجنا الله منه ولكن بعد أن تحسنا في هذا السيل وقتاً ومالاً واضطرت هذه اللجنة إلى الاحتجاب عن قرائها زمناً ولذلك فإننا نحسب السنة الماضية من أشقى أيام العمر إذا لم نقم فيها بالواجب نحو المشركون بإصدار اللجنة في أوقاتها عَلَى الصورة المقبولة التي كانت تظهر بها في سنيها الثلاث الأولى واضطررنا باديء بدء إلى رفض الورق الذي أوصينا عليه من معامل النساء بداعي مقاطعة البضائع بين البلاد العثمانية والنسائية ولما لم نجد الورق اللازم للجنة في بيروت ولا في دمشق اضطررنا إلى الطبع عَلَى ورق الكتابة عَلَى نحو ما تراه في الأجزاء الثلاثة الأولى من هذه السنة ثم توقعنا انتظام المطبعة التي أسسناها فما كاد يتعلم عنيتها ويستعد القائلون بما حتى أغلقت ظناً نحو أربعة أشهر. وما نحن اليوم نصدر آخر جزء من سنة ١٣٢٧ أي جزء شهر ذي الحجة في جهادى الثانية من سنة ١٣٢٨ والمأهول أن نوفق بعد ثلاثة أشهر إلى

إصدار كل جزء في شهره خصوصاً وقد تفرغنا أكثر من قبل للتأليف والترجمة في الموضوعات التي تابع البحث فيها.

ولقد توفرت لنا المواد خلال رحلتنا إلى أوروبا وصارت للنقشب علائق واسعة مع الأندية العلمية في ديار الغرب يتناول مدة الشهر من مطبوعاتنا أشياء كثيرة وسيتوفر بحول الله على نقل كل ما يهم هذا الشرق العربي منها ومن المجلات الفرنسية التي ننقل عنها بعد الآن مجلة العالمين والمجلة الآسيوية ومجلة العالم الإسلامي ومجلة الاقتصاديين ومجلة الطبيعة والمجلة الزرقاء والمجلة الوردية ومجلة انتيرية ومجلة المجلات ومجلة العلم الاجتماعي ومجلة مطالعاتنا في البيوت والمجلة التونسية إلى غير ذلك من المجلات التي قد نطعن عليها ولكن على طريقة غير منظمة دع عنك المجلات التركية والعربية. وسيكون في السنة المقبلة حظ واسع لتخصيص المؤلفات الإفريقية الحديثة في هذه المجلة والتوسع في الأبحاث التي تؤول إلى ترقية اللغة العربية وآدابها واجتماع العرب وعلومهم مع تطبيقاتها على حالة العرب اليوم فنسرج المدنية العربية بالمدنية الغربية لتكون لنا منها مدنية تأخذ من كل شيء أحسنه ونسأله تعالى أن يسددنا ويهتدنا ويثبت أقدامنا في خطتنا ويقلل خطأنا وخطيئتنا إنه أكرم مسؤول.

فهرس المجلد الرابع

ب

صفحة	صفحة	
٢٨١	٤٣٩	الماتيا . الاسلام فيها
٣١٦	٧٥١	امالي تاريخية
٧٩١	٤٣١	الامويون والعباسيون
٧٩١	١٨١	الامم والملوك . تاريخهم
٥٣٠	٠٦٥	اميركا . الجاون فيها
٥٨١	٥٣٠	• عطايا كلياتها
٦٤٨	٤٣٠	الاميركيون . حياتهم
٦٥٥	٦٥٥	الانسان . رماده
١٩٣	٦٤٩	• عمره
١٣٣	١٣٢	• كبريائه
٠٦٠	١٣٢	انكسار . دار الصناعة فيها
٥٨١	٧٠٧	• والشرق
٥٩٠	٥٣٣	الانكليز . غنى اشرافهم
٠٦٥	٤١٩	الاولائل
٣٧٠	٣٦٨	الاولاد . تبادلهم
***	٥٢٧	الايام . ثقلها
ت	٢٦٦	ايران . شامها
٩٩٧	٠٧٣	ايقاظ الرقود (قصيدة)
٧٩٢	٣٧٠	ايطاليا . الساعات فيها
٢٩٠	٤٣١	ايطاليا . كلياتها
٠٧٧	***	
١٣٥		ب
٧٩٣	٣٧٣	البترول . مكة حديدية به
٧٩٣	٧١٥	بردي . ملكتها
٦٤٤	٠٥٤	برلين . طيارتها
٩٩		بريطانيا . عظيمها
		• التسمم به

فهرس المجلد الرابع

٥٨	الزهور . عداوتها	٠٦٧	دواني القطف « »
	-----	١٩٢	ديوان رستم « : »
	س	٦٢٠	« الرصافي » : «
٥٨٨	الساعات . ندويرها	٧٩١	« السموأل » : «
١٩٨	السعادة . ادبها		***
٥٨٥	« سرها		ذ
٢٦٧	الكر . اسفماله	٣٧٧	النختر . نخبها
٠٠٣	سنتا الرابعة	٥٧٢ و ٦٤١	« نظرة في نخبها
٨٠٠	السنة الرابعة . خاتمتها	٧١٣	النمب والفضة
٠٥٥	السويد . الصحة فيها		***
	***		ر
	ش		الرأس والشعر . تنظيها
٠٠٤	النم والحرية	٥٧٨	الزنب . الفاؤها
٢٦٣	شرح ديوان طرفه (كتاب)	٢٦٦	الرب والارومة
٦٦٩	شذرة ذهب في فن الادب	١٦٩	رحلة الى اليمن (كتاب)
٧٩٥	الشرب . تطهير مائه	١٩٢	« الحبشة (كتاب)
٥٧٨	الشرطة . رجالها	٠٦٨	الرسالة العذراء
٧٩٠	الشرق الاسلامي	٥٥١	رسائل بليغة
٧٩٠	الشرق الاسلامي . الخطاطون	٣٩٣	الرمول . حياته
٦٤٤	المصورون فيه	٧٠٦	الزعد . صوته
٢٠٣	الشعر . سقوطه	٥٨٠	الومل . بيونه
٢٠٣	« . غلظه	٥٨٩	الروانج والمضم
٧٤٨	الشعري	٥٢٣	-----
٠٣٧	الشعرية		ز
١٣١	الشمس وطول الحياة		الزكام . علاجه
٥٢٠	الشوندر . طينه	٥٧٩	الزنج . تعليمه
٧٩٠	الشهاب في الحكم والآداب (كتاب)	١٣١	

فهرس المجلد الرابع

ل	٦٤٤	و
٠٥٦	اللبن الحليب	الفرنسيس . معلوم
٠٥٠	اللسان (قصيدة)	القواكه . أصليا
٧٩٥	الآغات الحية .	الفولاذ . ممله
٤٢٥	اللغة العثمانية	في سلايك (قصيدة)
٧٩٢	« العربية	
٢٦٣	الهمع في اصول الفقه (كتاب)	
		ف
	٧٠٢	قاطرة كبيرة
	٠٣٠	القديم والحديث
	٠٦٤	القرارة . غر فيها
	٥٩٣	القضاة والذواب
٧١٦	الماء السائح	القطعان . رجليا
٧١٣	« الغالي	قلمون . رحلة الى جبله
٠٥٤	« المقدس	القهوة . معد لها
٢٦٦	المشردون . قاتونهم	
٧١١	المجالس النيابية	
٧٩٣ و ٢٦٥	مجلات جديدة (تزييل)	ك
٠٧٠	مجلات وجراند	الكتاب . عاداتهم
٠٥٣	المجموع العصبي	كتاب خصائص اللغة العربية
١٩٣	محاضرات ادبيات الجغرافيا والتاريخ	(كتاب)
	واللغة (كتاب)	« العرب
٢٠٢	المحظورات	كتب متفرقة
٧١٨	مخطوطات نادرة	الكشك . نراجها
٧٣٦	المرأة	الكذب . آله
١٣١	المرسلون . اعمالهم	كربت . عمراتها
٧٩٣	مرشد العائلات (كتاب)	الكليات الفرنسية
٠٥٥	المستقبل . مزرعه	الكوريون . اخلاقهم
٢٥٣	المسلمون . حاناتهم الاجتماعية	
٧٩١	مصر . تاريخ حكمها	